

الفصل الثاني: مصادر السياسة الشرعية وخصائصها وقواعدها الأساسية

المبحث الأول: مصادر السياسة الشرعية :-

المطلب الأول: السياسة الشرعية في القرآن الكريم:-

١ - الأمانة :-

تضمنت آيات القرآن الكريم المصادر العامة التي تقوم عليها السياسة الشرعية وأوجبت على المسلمين العمل بها، فمنها تلك الآيات الكريمات التي حثت على أداء الأمانة، وقد نص القرآن الكريم في أكثر من موضع على ذلك، ومن ذلك قوله ﷻ: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) ^(١).

قال ابن تيمية في تفسير أداء الأمانة: أما أداء الأمانة ففيه نوعان أحدهما الولايات، فيجب على ولي الأمر أن يختار على كل عمل من أعمال المسلمين من يجده لذلك العمل أميناً ^(٢). وإذا كان الله تعالى قد أمر بأداء الأمانة إلى أهلها، فإنه نهي عن الخيانة التي تتضمن إسناد الأمر إلى غيره أهله وفي هذا يقول الله ﷻ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ^(٣).

ولما كانت السياسة الشرعية تركز فيما تركز على تأدية الأمانة لأهلها بغية تحقيق مصالح العباد وفقاً لمقاصد الشريعة الإسلامية فالعمل بها يكون واجبا.

وهناك ولا شك أسباب تعين علي تحمل الأمانة وأدائها علي الوجه المطلوب من هذه الأسباب الأسباب التي تحمل العبد على أن يؤدي الأمانة:

إن هناك أسبابا تحمل العبد على أن يؤدي هذه الأمانة، ومن أهم وأعظم ما يحمل الإنسان على أدائها:

١ - معرفة الإنسان أنه مخلوق لربه، والمخلوق مملوك لربه، فليؤد هذه الحقوق التي فيما بينه وبين ربه.

٢ - معرفته أن ربه هو المنعم المتفضل عليه، فالمخلوق مُنعم عليه، لا يليق به أن يتأخر عن أداء حق ربه الذي ائتمنه عليه.

٣ - معرفة الإنسان أن هذه الأمانة من الفرائض التي فرضها عليه ربه، ولا بد أن يؤديها.

(١) سورة النساء: الآية (٥٨).

(٢) مجموعة الفتاوى (٢٤٦/٢٨)، والجامع لأحكام القرآن (٢٥٥/٥-٢٥٧).

(٣) سورة الأنفال: الآية (٢٧).

٤ - معرفة الإنسان أن ربه مطلع عليه لا تخفى عليه خافية، وهذه الأمانات التي يتحملها مما لا يخفى عليه ولا بد من أدائها.

٥ - معرفة الإنسان أنه متى قام بهذا الحق، وأدى هذه الأمانات سرها وجهرها، فإنه يحصل له ثواب عظيم في الدنيا وفي الآخرة.

ففي الدنيا: انشراح قلبه واطمئنانه، وسعة رزقه، وبما يفتحه الله عليه، وفي الآخرة: الثواب العظيم الذي هو الأجر الأخروي.

وهناك أسباب أخرى، وإن كانت هذه الأسباب من أهم وأعظم ما يحمل الإنسان على أداء الحقوق.

أما الذين تشاهدهم لا يقومون بهذا الحق أو يقصرون فيه، ويتنكبون حرمة الله ولا يراعون حقه، فإنما ذلك لنقص معرفة الله في قلوبهم، أو لنقص معرفة نعم الله عليهم، أو معرفة أنه الخالق لهم والمالك، أو لعدم تصديقهم بوعده سبحانه بالثواب، أو بوعيده بالعقاب لمن عصاه، ونحو ذلك.

فهؤلاء الذين يخونون الأمانات الدينية ولا يقومون بها، إنما ذلك لضعف الإيمان في قلوبهم، نسأل الله أن يجمع قلوبنا على طاعته، وأن يؤلف بين قلوب المسلمين، وأن يجمع كلمتهم، وأن يردهم إلى الحق رداً جميلاً وأن يريهم الحق حقاً ويرزقهم إتباعه، والباطل باطلاً ويرزقهم اجتنابه^(١).

٢ - الشورى :-

نص القرآن الكريم على مبدأ الشورى، فقال الله ﷻ : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)^(٢).

فالشورى هي : طلب الرأي ممن هو أهل له^(٣)، وعليها قام ترشيح العدول من المسلمين لمن يروونه أهلاً للقوة والإمامة لتولي أمرهم.

ومما هو معلوم من الدين بالضرورة أن الرسول لم يترك نصاً مكتوباً لكن وردت عن النبي ﷺ إشارات كثيرة تدل على استخلافه لأبي بكر، والذي استخلف عمر رضي الله عنهما، ثم إن عمر جعل الأمر في الستة الذين توفي النبي ﷺ وهو عنهم راض، وقد اكتمل عقد الخلفاء الراشدين بعد استشهاد علي t، بولاية الحسن بن علي t بعد أبيه، فاكتمل به الثلاثون عاماً التي أخبر النبي ﷺ أنها هي الخلافة الراشدة، وأمر باتباعها.

(١) الأمانة، رسالة للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين، نسقها ونشرها: سلمان بن عبد القادر أبو زيد.

(٢) سورة آل عمران : الآية (١٥٩).

(٣) نظام الدولة في الإسلام وعلاقتها بالدول الأخرى د. جعفر عبد السلام ص (١٩٩).

عن سعيد بن جهمان قال حدثني سفينة قال: قال ٢:

"الخلافة في أمي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك" ثم قال لي سفينة (أمسك خلافة أبي بكر ثم قال وخلافة عمر وخلافة عثمان ثم قال لي أمسك خلافة علي قال فوجدناها ثلاثين سنة)^(١)، عن سعيد بن جهمان عن سفينة قال: قال رسول الله ٢ "خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله الملك أو ملكه من يشاء" قال سعيد قال لي سفينة (أمسك عليك أبا بكر سنتين وعمر عشرا وعثمان اثني عشرة وعلي كذا قال سعيد قلت لسفينة إن هؤلاء يزعمون أن عليا ء لم يكن بخليفة قال كذبت أستاذ بني الزرقاء يعني بني مروان)^(٢).

عن النعمان بن بشير ء قال كنا قعودا في المسجد مع رسول الله ٢ وكان بشير رجلاً يكف حديثه فجاء أبو ثعلبة الخشني فقال: يا بشير بن سعد أتخفظ حديث رسول الله ٢ في الأمراء؟، فقال حذيفة: أنا أحفظ خطبته، فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة: قال رسول الله ٢: "تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ثم تكون ملكا عاضاً فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت" ^(٣).

أهمية الشورى:-

الشورى ضرورة من ضروريات الحياة يحتاج إليها كل مسلم، وينبغي علي المسلم أن يعين أخاه، وان يبذل جهده في نصح أخيه، فالمستشار مؤتمن^(٤) لا يفضي لأخيه سرا ولا يخونه لأن من استشاره أخوه المسلم فأشار عليه بغير رشد فقد خانته^(٥)، والشورى بركه، وما شقي قط عبد بمشورة وما سعد باستغناء رأي، وما خاب من استخار ولا ندم من استشار^(٦).

قال رسول الله ٢: " إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنيائكم سمحاءكم وأمركم شوري بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنيائكم بخلائكم، وأمركم إلى

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الفتن، باب: ماجاء في الخلافة، حديث (٢١٥٢)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع الكبير، (٥٠٣/٤).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب: في الخلفاء، حديث (٤٠٢٨). وحسنه العلامة الألباني في صحيح أبي داود (٢١١/٤).

(٣) أخرجه أحمد، أول مسند الكوفيين، حديث: النعمان بن بشير (١٧٦٨٠)، وحسنه العلامة الألباني في مشكاة المصابيح.

(٤) أخرجه بن ماجه، كتاب الأدب، حديث (٣٧٤٥-٣٧٤٦)، أخرجه أحمد (٢٧٤/٥)، حديث ابن مسعود ء، أخرجه الدارامي، (٢١٩/٢)، ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، (٩٩/٨)، بروايات عديدة عن علي لا تخلو من مقال ورواية أبي مسعود عند بن ماجه بإسناد صحيح.

(٥) أخرجه أحمد، حديث أبي هريرة: حديث حسن، (٣٢١/٢)، (٣٦٥).

(٦) رواه الطبراني في الأوسط والصغير بإسناد ضعيف، ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، (٩٩/٨).

نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظاهرها" (١)،
والمرأة تستشار، فالبكر تستأمر والشيخ تشاور (٢).

وقد كان رسول الله ﷺ لا يدع المشورة في أمره كله، وكان يكثر من طلب المشورة، استشار أصحابه قبل القتال في غزوة بدر (٣)، وشاورهم بعد القتال في مصير الأسري (٤)، وشاور أصحابه قبل الخروج في غزوة أحد (٥)، واستشار سعد بن معاذ وسعد بن عباد في أن يصالح غطفان علي ثلث ثمار المدينة (٦)، واستشار أصحابه قبل غزوة الأحزاب فأشار عليه سلمان الفارسي t بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة (٧)، واستشار علي بن أبي طالب t في حادثة الإفك (٨)، وأشارت عليه أم سلمة بعد صلح الحديبية أن يحلق رأسه ويذبح هديه دون أن يكلم أحدا. فتابعه الصحابة y بعد ذلك (٩).

وقد اتسع مجال العمل بالشورى في عهد الراشدين، وذلك لظهور حوادث لم تكن تعرف علي عهد رسول الله ﷺ، من ذلك اختيار خليفة المسلمين، وقد لجأ الأصحاب y إلي أسلوب المشاورة في هذا الاختيار سواء كان هذا الاختيار عن طريق أهل الحل والعقد أو كان عن طريق الاستخلاف، ومن المأثور عن عمر t انه قال (من بايع رجلا من غير مشورة المسلمين فلا يبايع ولا الذي بايعه تغره أن يقتل) (١٠).

كذلك لجأ الخلفاء الراشدون y لأسلوب المشاورة في استنباط الأحكام الشرعية فكان أبو بكر t إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله U فان وجد فيه ما يقضي به قضى بينهم، وان علمه من سنة رسول الله ﷺ قضى به، وان لم يعلم خرج فسال المسلمين عن السنة، فان أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلمائهم فاستشارهم، وبمثل ذلك كان يفعل عمر t

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الفتن، حديث (٢٣٦٨) (٣/٣٦١)، وقال هذا حديث غريب.

(٢) أخرجه احمد، (٢٩٩/٢)، حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم، ك: الجهاد، ب: غزوة بدر، ح (١٧٧٩)، أخرجه أحمد (٣/٢١٩، ٢٥٧)، وأخرجه بن هشام، السيرة، ص ٤٠٧.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب: الإمداد بالملائكة، حديث (١٧٦٣). أخرجه احمد، (٣/٢٤٣).

(٥) أخرجه البخاري معلقا، كتاب الاعتصام، باب: قول الله U وأمرهم شوري بينهم، ج ٤ ص ١٨٩، ووصله الطبراني والحاكم وصححه (٢/١٢٨) وما بعدها، أخرجه احمد، (٣/٣٥١)، أخرجه بن هشام، السيرة ج ٣ ص ٤٦-٤٧ عن بن إسحاق مرسلا.

(٦) أخرجه بن هشام، السيرة، (٣/١٦٣)، ورواه الطبراني في المجموع، والبخاري، وابن شيبة في مصنفه.

(٧) ابن القيم، زاد المعاد (٣/٢٧٣)، أخرجه بن هشام، السيرة، (٣/١٦٣).

(٨) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب: حديث الإفك (٤١٤١)، كتاب التفسير (٤٧٥٠)، أخرجه بن هشام، السيرة (٣/٢٢٣).

(٩) أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد، حديث (٢٧٣١-٢٧٣٢).

(١٠) أخرجه البخاري، ك: الحدود (٦٨٣٠). وأخرجه احمد، حديث (٥٦/١). وأخرجه عبد الرزاق (٤٤٥/٥) حديث (٩٧٥٩).

(١١) أخرجه البيهقي بسند صحيح، مشار إليه في فتح الباري، (٣/٣٥٤)، وأخرجه الدرامي (١/٥٨).

ثم كانت الشورى سبيلهم في كل ما استجد من الأمور، ولو استقصينا ذلك لطال بنا المقام^(١).

٣ - العدل :-

إن العدل هو الدعامة الرئيسية في إقامة المجتمع الإسلامي والحكم الإسلامي، ولذلك اهتم الإسلام بتقرير هذه القاعدة وتأسيسها وتدعيمها، فأكثر الحديث عنها في الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة.

إن إقامة العدل بين الناس أفراداً وجماعات ودولاً، ليست من الأمور التطوعية التي تترك لمزاج الحاكم أو الأمير وهواه، بل إن إقامة العدل بين الناس في الدين الإسلامي تعد من أقدس الواجبات وأهمها، قد أجمعت الأمة على وجوب العدل، قال الفخر الرازي -رحمه الله-: ((أجمعوا على أن من كان حاكماً وجب عليه أن يحكم بالعدل))^(٢).

وهذا الحكم تؤيده النصوص من القرآن الكريم، والسنة النبوية، ومن هذه النصوص: قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)^(٣) وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضي وجوبه. وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)^(٤)، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)^(٥). وقال تعالى: (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ)^(٦).

ثم إن ترك العدل يعد ظلماً، والله سبحانه وتعالى حرم الظلم وذرهم بالعذاب الشديد يوم القيامة والهلاك في الدنيا^(٧).

(١) قال ابن حجر: وتقدم أن القراء كانوا أصحاب مجلس عمر **t** ومشاورته، وقد ورد من استشارة ألائمه بعد النبي **r** أخبار كثيرة، منها مشاورة أبي بكر **t** في قتال أهل الردة، ومشاورة عمر **t** الصحابة **y** في حد الخمر كتاب الحدود، ومسلم، كتاب الحدود (١٧٠٦)، ومشاورة عمر **t** الصحابة **y** في املاص المرأة كتاب الديات (٦٩٠٥)، ومشاورة عمر **t** في قتال الفرس = كتاب الجهاد، كتاب الجزية والموادعة (٣١٥٩)، ومشاورة عمر **t** المهاجرين **y** والأنصار **y** ثم مشيخة قريش لما أرادوا دخول الشام وبلغه أن الطاعون وقع بها كتاب الطب (٥٧٢٩)، ومشاورة عثمان **t** الصحابة **y** فيما يفعل بعبيد الله بن عمر عند بن سعد ج ٣ قسم (٢٥٩/١)، ومشاورة عثمان **t** الصحابة **y** في جمع الناس علي مصحف واحد، عند أبي داود، كتاب المصاحف من طرق عن علي **t** منها قوله (ما فعل عثمان الذي فعل في المصاحف إلا عن ملا منا) وسنده حسن.

(٢) تفسير الرازي (١٤١/١٠).

(٣) سورة النحل، الآية (٩٠).

(٤) سورة النساء، الآية (٥٨).

(٥) السابق، الآية (١٣٥).

(٦) سورة الشورى، الآية (١٥).

(٧) انظر: النظام السياسي في الإسلام، د. محمد أبو فارس، ص ٤٩.

قال تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ) ^(١).

وقال تعالى: (فَبَلِّغْهُمْ رُسُلَهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا) ^(٢).

وقال تعالى: (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَا جَهَنَّمَ) ^(٣).

إن العدل في حياة هذه الأمة الحمديّة الخاتمة واقع عاشته ومارسته، وطبقته في واقع حياتها، على مر تاريخها الطويل، على تفاوت في ذلك التطبيق بين زمان وزمان، ودولة ودولة، وحسب اشتغال جذوة الإيمان في قلوب الحاكمين، وخبوتها، لقد مارست هذه الأمة العدل مع أعدائها وخصومها، وأهل ذمتها.

إن من أهداف التمكين إقامة المجتمع الإسلامي الذي تسود فيه قيم العدل والأمانة والطاعة ورفع الظلم ومحاربه بكل أشكاله وأنواعه، فإذا نظرنا لتاريخ الدولة الإسلامية في زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، ومن سار على هديهم من التابعين رأينا صورا مشرفة تدل على عظمة هذا الدين، وحب هذه الأمة للعدل:

فها هو النبي ﷺ يقيد أصحابه من نفسه في طعنة طعنها إياه بالقدح في بطنه أثناء تسويته الصف للقتال، روى ابن إسحاق ^(٤) أنه ﷺ: "عدل صفوف أصحابه يوم بدر وفي يده قدح ^(٥) يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية ^(٦) وهو مستقل من الصف، قال ابن هشام ^(٧) ويقال: مستنصل ^(٨) من الصف - فطعنه في بطنه بالقدح - وقال: استو يا سواد، فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدي، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: استقد، قال: فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير..." ^(٩).

وجاء يهودي يشتكي إليه أحد أصحابه قائلاً: ((يا محمد، إن لي على هذا أربعة دراهم وقد غلبني عليها، قال: أعطه حقه، قال: والذي نفسي بيده، ما أقدر عليها، قد أخبرته أنك تبعثنا إلى خير فأرجو أن تغنمنا شيئا فأرجع فأقضيه، قال: أعطه حقه، وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثا لم

(١) سورة إبراهيم، الآية (٤٢).

(٢) سورة النمل، الآية (٥٢).

(٣) سورة الصافات، الآية (٢٢).

(٤) هو العلامة أبو بكر القرشي الكلبي مولا هم المدني صاحب السيرة النبوية، توفي عام ١٥١هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (٢٥/٧).

(٥) القدح (بكسر القاف وبسكون الدال): السهم (لسان العرب: ٥٥٦/٢).

(٦) هو سواد بن غزية الأنصاري من بني عدي بن النجار، شهد بدرا وأمره النبي ﷺ على خير، انظر: ابن حجر، الإصابة (٩٥/٢).

(٧) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب النهلي وقيل الحميري، قام بتهذيب سيرة ابن إسحاق وهو من أئمة اللغة، توفي ٤١٨هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (٤٢٩/١٠).

(٨) مستنصل: أي خارج من نصل، بمعنى خرج، لسان العرب (٦٦٢/١).

(٩) سيرة ابن هشام: (٦٢٦/١) تحقيق مصطفى السقا وزملائه.

يراجع...))^(١).

وكان ٣ يقيم حدود الله على من وجب عليه ذلك في عدل وإنصاف لا تأخذه في ذلك لومة لائم ولا قرابة قريب ولا مكانة شريف، فهذا هو ٣ وهو الصادق المصدوق البار في قسمه: لو أن ابنته سرقت لأقام عليها، لا يدفعه عنها كونها ابنة محمد ٣.

عن عائشة رضي الله عنها: ((أن قريشا أهتمهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ٣ ومن يجترئ عليه إلا أسامة فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فخطب فقال: "يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، و أيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها"))^(٢).

وهكذا كان ٣ يقيم العدل، وينفذ الحدود في دولته.

وهذا عمر بن الخطاب t يقيم العدل والقسط بين الناس، يحكم بالحق لرجل يهودي على مسلم، ولم يحمله كفر اليهودي على ظلمه والحيث عليه، أخرج الإمام مالك^(٣) من طريق سعيد بن المسيب: ((أن عمر بن الخطاب t اختصم إليه مسلم ويهودي، فرأى عمر أن الحق لليهودي فقضى له، فقال له اليهودي: والله لقد قضيت بالحق))^(٤).

وكان t يأمر عماله أن يوافوه بالمواسم، فإذا اجتمعوا قال: يا أيها الناس إني لم أبعث عمالي ليصيبوا من أبشاركم، ولا من أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم، وليقسموا فيكم بينكم، فمن فعل به غير ذلك فليقم، فما قام أحد إلا رجل واحد قام فقال: يا أمير المؤمنين أن عاملك فلانا ضربني مائة سوط، قال: فيم ضربته؟ قم فاقتص منه، فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكسر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك، فقال: أنا لا أقيد، وقد رأيت رسول الله ٣ يقيد من نفسه، قال: فدعنا فلنرضه، قال: دونكم فأرضوه، فافتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين^(٥)، وإن لم يرضوه لأقاده^(٦) t.

وجاء رجل من أهل مصر يشكو ابن عمرو بن العاص واليه على مصر قائلاً: ((يا أمير المؤمنين، عائد بك من الظلم، قال: عذت معاذاً، قال: سابت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو رضي الله عنهما يأمره

(١) أخرجه أحمد (٤٢٣/٢) رقم (١٥٥٧٠)، والطبراني في الصغير والأوسط، ورجاله ثقات، إلا محمد بن يحيى ليس له رواية عن الصحابة، فيكون مرسلًا صحيحًا.

(٢) البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة إذا رفع إلى السلطان (٨٧/١٢) رقم ٦٧٨٨.

(٣) هو مالك بن أنس بن أبي عامر، إمام دار الهجرة، ولد عام ٩٣ هـ، توفي ١٧٩ هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (٤٩/٨-١٣٥).

(٤) الموطأ، كتاب الأفضية، باب: الترغيب في القضاء بالحق، رقم الحديث: (١٤٠٠) ج (٧٢٠/٢).

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٩٣/٣ - ٢٩٤).

(٦) أقاده: اقتص منه.

بالقدوم ويقدم بابنه معه، فقدم فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب فجعله يضربه بالسوط ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين، قال أنس: فاضرب، فوالله لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما رفع عنه حتى تمنينا أن يرفع عنه، ثم قال عمر للمصري: ضع على صلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد استفيت منه، فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدكم أمهاتهم أحرارا؟ قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتي^(١).

فانظر إلى هذه المواقف الرائعة لعدالة هذه الأمة، رجل من عامة الناس وفي رواية أنه ذمي من أقباط مصر، يتظلم فيعطى حقه ويقاد من ابن الأمير، يجاء به وبأبيه ليعطي الرجل حقه وينصف، ثم انظر إلى الحاضرين من أصحاب النبي ﷺ كيف أحبوا ذلك وأيدوه ((فوالله لقد ضربه ونحن نحب ضربه)) لا تشفيا منه ولا شماتة بعمرو وابنه، فالقوم فوق ذلك وأبعد ما يكونون عن التشفي والشماتة، ولكنهم جيل أحب العدل وعاشه وتربى عليه على يد رسول الله ﷺ، لذا فهو يبعث الجور ولا يجب رؤيته في الأمة ولو كان رجلا مخالفا لها في عقيدتها ودينها وشرعها، ويفرح أشد الفرح لرؤية العدالة ترمي بجذورها في أعماق الأمة ليؤخذ حق ضعفائها وأتباعها من أقويائها^(٢)، وإن الناس إذا شعروا بإقامة العدالة في مجتمعهم، وسيادة العدل في حياتهم، على المسلمين وغير المسلمين، تستقر نفوسهم، وتطمئن قلوبهم، وتهدأ أحوالهم، ويزدهر مجتمعهم ويعمهم الخير والأمن والأمان والسلامة والإسلام^(٣).

إن تحقق العدل الإلهي في حياة البشرية هدف لكل مسلم فرد أو جماعة، حاكم أو محكوم، ومن هنا كانت وظيفة كل نبي ورسول ومهمته أن يقيم في الناس القسط، قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)^(٤).

إن الدولة الإسلامية واجب عليها أن تقيم العدل بين الناس وتفسح المجال وتيسر السبل أمام كل إنسان يطلب حقه أن يصل إلى حقه بأيسر السبل وأسرعها، دون أن يكلفه ذلك جهد أو مال^(٥)، وعليها أن تمنع أي وسيلة من الوسائل من شأنها أن تعيق صاحب الحق من الوصول إلى حقه.

لقد أوجب الإسلام على الحكام أن يقيموا العدل بين الناس دون النظر إلى لغاتهم أو أوطانهم أو أحوالهم الاجتماعية، فهو يعدل بين المتخاصمين ويحكم بالحق ولا يهتم أن يكون المحكوم لهم أصدقاء أو أعداء، أغنياء أو فقراء، عمالا أو أصحاب عمل، قال تعالى: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ

(١) انظر: فتوح مصر و المغرب لابن عبد الحكم: ٢٢٥، ٢٢٦.

(٢) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق، ص ١٧٠.

(٣) انظر: النظام السياسي في الإسلام، ص ٥٤.

(٤) سورة الحديد، الآية (٢٥).

(٥) انظر: النظام السياسي في الإسلام، ص (٥٨).

قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى^(١)، والمعنى لا يحملنكم بغض قوم على ظلمهم، ومقتضى هذا أنه لا يحملنكم حب قوم على محاباتهم والميل معهم^(٢).

٤ - طاعة ولي الأمر :-

تناول القرآن الكريم أهم ركائز السياسة الشرعية أيضا فأوجب مبدأ طاعة أولى الأمر وذلك حفاظا على استقرار وامن الوطن وحمايته من الفتن والأضرار وقد تضمنت آيات الذكر الحكيم وجوب طاعة أولى الأمر في آيات كثيرة منها قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)^(٣).

عن أبي هريرة **t**، قال: قال رسول الله **ﷺ**: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع الإمام فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى الإمام فقد عصاني"^(٤).

وعن ابن عباس **t**، قال: قال رسول الله **ﷺ**: "من رأى من أميره شيئا يكرهه، فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا، فموت إلا مات ميتة جاهلية"^(٥).

إن احترام اختصاصات ولي الأمر، وطاعته، وعدم الافتيات عليه يعد نتاجا طبعيا للبيعة المعقودة لولي الأمر من الأمة؛ على أن هذه البيعة تعد مؤكدة لمبدأ طاعة ولي الأمر الثابت بالنصوص الشرعية، وليست مؤسسة له؛ بمعنى: أن طاعة ولي الأمر واحترام اختصاصاته وعدم الافتيات عليه يظل لازما لجميع الأمة؛ من بايع منهم ولي الأمر، ومن لم يبايعه: أما من بايع ولي الأمر فقد لزمته الطاعة بموجب نصوص الشرع والبيعة معا، وأما من لم يبايع فقد لزمته طاعة ولي الأمر بموجب نصوص الشرع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): (وما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاية الأمور، ومناصحتهم واجب على الإنسان وإن لم يعاهدكم عليه، وإن لم يحلف لهم الأيمان المؤكدة؛ كما يجب عليه الصلوات الخمس، والزكاة، والصيام، وحج البيت، وغير ذلك مما أمر الله به ورسوله من الطاعة، فإذا حلف على ذلك كان ذلك توكيدا وتشبيها لما أمر الله به ورسوله عن طاعة ولاية

(١) سورة المائدة، الآية (٨)

(٢) انظر: النظام السياسي في الإسلام، ص (٥٢).

(٣) سورة النساء: الآية (٥٩).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٥/٦) كتاب الجهاد والسير، باب: يقاتل من وراء الإمام ويتقي به (٢٩٥٧)، ومسلم (١٤٦٦/٣)، كتاب الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (٣٢-١٨٣٥).

(٥) أخرجه البخاري (٧/١٣) كتاب الفتن، باب: قول النبي **ﷺ**: (سترون بعدي أمورا تنكرونها) رقم (٧٠٥٣)، وطرفاه في (٧١٤٣، ٧٠٥٤)، ومسلم (١٤٧٧/٣، ١٤٧٨) كتاب الإمارة، باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين رقم (٥٥)، (١٨٤٩/٥٦).

الأمر ومناصحتهم، ولهذا من كان حالفاً على ما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم.. لا يجوز لأحد أن يفتيه بمخالفة ما حلف عليه والحنث في يمينه، ولا يجوز أن يستفتي في ذلك، ومن أفتى مثل هؤلاء بمخالفة ما حلفوا عليه، والحنث في أيمانهم، فهو مفترٍ على الله الكذب، مفت بغير دين الإسلام^(١).

واستناد طاعة ولي الأمر في الإسلام على نصوص الشرع ابتداءً، وكونها ليست مجرد نتيجة مباشرة للاتفاق العقدي بينهما^(٢)، هي التي تقيد هذه الطاعة بأحكام الشارع الحنيف؛ ولا تجعلها طاعة مطلقة؛ لأن الطاعة المطلقة في الإسلام هي فقط لله وللرسول؛ كما يفهم من قول الله U (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١))^(٣).

وقول الله U (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦))^(٤).

واقتران الطاعة المطلقة في الإسلام على الله ورسوله فحسب تعني حصر السيادة في تعاليم الشارع الحكيم، حيث تسود هذه التعاليم المجتمع المسلم حكاماً ومحكومين، وتبقى هذه التعاليم هي الحاكمة على تصرفات وأقوال وأفعال وأوامر ونواهي الاختصاص، من الأحكام وغيرهم، فما صدر عن أهل الاختصاص فيما يتعلق باختصاصاتهم موافقاً لأحكام الشرع، فهو واجب الاحترام، وما كان من ذلك مخالفاً لأحكام الشرع فليضرب به عرض الحائط؛ لأنه "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"^(٥)، ولهذا فإن احترام الفقه الإسلامي لأهل الاختصاص بصفة عامة يأتي مقيداً بأحكام الشارع الحكيم.

كل هذا يعطينا يقيناً أن مفهوم السياسة الشرعية نابع في أساسه وأساسه من القرآن الكريم وأن السياسة الشرعية مصدرها الأول كتاب الله U .

(١) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، ط (١)، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م، دار الكتب العلمية، بيروت (٩/٣٥-١١).

(٢) ينظر: المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي، د. نيفين عبد الخالق، رسالة دكتوراه، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة ١٩٨٣ م، ص (٦٧، ٦٨).

(٣) سورة النور آية: ٥١.

(٤) سورة الأحزاب آية: ٣٦.

(٥) أخرجه من رواية عمران بن حصين والحكم بن عمرو - رضي الله عنهما - وأبو داود الطيالسي ص (٢١١٥)، (٨٥٦)، وأحمد في المسند (٦٦/٥)، والحاكم في المستدرک (٤٤٣/٣)، كتاب معرفة الصحابة، باب: كان سبب موت حكم بن عمرو، قال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي والخطيب في التاريخ (١٤٥/٣).

المطلب الثاني: السياسة الشرعية في السنة

ثبت في أقوال الرسول ﷺ ما يدل دلالة صريحة وواضحة على أن السياسة الشرعية جزء من تعاليم الإسلام التي بلغها للناس، فعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: ((من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر؛ فإنه من فارق الجماعة شبراً فميتته جاهلية))^(١).

عن قتادة عن نصر بن عاصم عن سبيع بن خالد قال أتيت الكوفة في زمن فتحت تستر أجلب منها بغالا فدخلت المسجد فإذا صدع من الرجال وإذا رجل جالس تعرف إذا رأيته أنه من رجال أهل الحجاز قال قلت من هذا فيجهمني القوم وقالوا أما تعرف هذا، هذا حذيفة بن اليمان صاحب رسول الله ﷺ فقال حذيفة إن الناس كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر فأحذقه القوم بأبصارهم فقال إني قد أرى الذي تنكرون إني قلت يا رسول الله أرأيت هذا الخير الذي أعطانا الله أيكون بعده شر كما كان قبله قال "نعم". قلت فما العصمة من ذلك قال "السيف". قلت يا رسول الله ثم ماذا يكون قال "إن كان الله خليفة في الأرض فضرب ظهرك وأخذ مالك فأطعه وإلا فمت وأنت عاض بجذل شجرة". قلت ثم ماذا قال "ثم يخرج الدجال معه نمر ونار فمن وقع في ناره وجب أجره وحط وزره ومن وقع في نمره وجب وزره وحط أجره". قال قلت ثم ماذا قال "ثم هي قيام الساعة"^(٢)، وروى زيد بن وهب^(٣)، قال: سمعت عبد الله، قال: قال لنا رسول الله ﷺ:

"سترون بعدى أثره وأمورا تنكرونها"، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: "أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم"^(٤).

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع الإمام فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى الإمام فقد عصاني"^(٥).

(١) أخرجه البخاري (٧/١٣) كتاب الفتن، باب: قول النبي ﷺ: ((سترون بعدى أمورا تنكرونها)) رقم (٧٠٣٥)، ومسلم (١٤٧٧، ١٤٧٨/٣) كتاب الإمارة، باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال، وتحريم الخروج على الطاعة، ومفارقة الجماعة، رقم (١٨٤٩/٥٥، ٥٦).

(٢) أخرجه أبو داود باب ذكر الفتن ودلائلها ح (٤٢٤٦) وحسنه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة.

(٣) هو: زيد بن وهب الجهني، أبوسليمان، هاجر فمات النبي ﷺ وهو في الطريق، نزل الكوفة، قال الأعمش: إذا حدثك فكأنك سمعت من الذي حدثك عنه، قال ابن سعد: توفي بعد الجماجم، ينظر: تاريخ البخاري الكبير (٤٠٧/٣)، تهذيب التهذيب (٤٢٧/٣).

(٤) أخرجه البخاري (٧/١٣) كتاب الفتن، باب: قول النبي ﷺ: ((سترون بعدى أمورا تنكرونها)) رقم (٧٠٢٥)، ومسلم (١٤١٧/٣)، كتاب الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء (٤٦-١٨٤٤).

(٥) أخرجه البخاري (١٣٥/٦) كتاب الجهاد والسير، باب: يقاتل من وراء الإمام ويتقى به (٢٩٥٧)، ومسلم (١٤٦٦/٣)، كتاب الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (٣٢-١٨٣٥).

كما أثبتت السنة النبوية المطهرة نموذجاً يجب أن تحتذي به التشريعات الوضعية وهي العقوبات التعزيرية التي تعد منهاجاً أساساً في بيان عظمة السياسة الشرعية التي سنّها النبي ﷺ لخلفائه من بعده، فمن ذلك أنه ﷺ قال: "... ومن خرج بشيء فعليه غرامة مثلية والعقوبة" (١). كما ورد أنه ﷺ عاقب بالتغريب، فأمر بإخراج المخنثين من المدينة (٢)، وأمر ﷺ بكسر القدور التي طبخ فيها لحم الحمر (٣).

كل هذا يعطينا نموذجاً عملياً لاهتمام النبي ﷺ بإقامة الدولة المسلمة على وفق منهج الله تعالى، وإن السياسة الشرعية ضمن التشريعات التي سنّها النبي ﷺ لهذه الأمة، وذلك لمقتضيات المصلحة العامة التي تشمل الأفراد والجماعات.

المطلب الثالث : الاجتهاد في السياسة الشرعية عند سلف الأمة :-

١ - الاجتهاد لغة:-

في المصباح ((الجهد بالضم في الحجاز، وبالفتح في غيرهم النهاية والغاية، وهو مصدر من جهد في الأمر جهداً، من باب نفع إذا طلب حتى بلغ غايته في الطلب)) (٤).

٢ - الاجتهاد اصطلاحاً:-

الاجتهاد في اصطلاح العلماء هو عبارة عن بذل الوسع والمجهود في طلب الشيء المرغوب وإدراكه حيث يرجى وجوده فيه (٥).

وعرف الآمدي (٦) الاجتهاد بقوله:

((بأنه استقراغ الوسع في طلب الظن بشيء من الأحكام الشرعية على وجه يحس من النفس العجز عن المزيد فيه)) (٧).

والاجتهاد يعد من ضروريات الأمة خاصة في شخص الخليفة، وهو شرط عند علماء المسلمين في الإمام، بحيث يصلح أن يكون قاضياً من قضاة المسلمين وحتى يمكنه الاستغناء عن استفتاء

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٣٩٠)، والنسائي في المجتبى (٨٥/٨)، والترمذي برقم (١٢٨٩)، حديث حسن.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٤٣٥/١١) ومن طريقه البيهقي في السنن (٢٢٤/٢) عن معمر، عن أيوب، عن عكرمة قال: أمر النبي ﷺ برجل من المخنثين فأخرج من المدينة، وأمر أبو بكر برجل منهم فأخرج أيضاً.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٧٧)، ومسلم (١٨٠٢٢٣) بلفظ: أن النبي ﷺ رأى نيراناً توقد يوم خيبر، فقال: علام توقد هذه النيران؟ قال: على الحمر الإنسية، قال: اكسروها واهريقوها، قالوا: ألا نهرقها ونغسلها؟ قال: اغسلوا.

(٤) المصباح المنير، مادة (جهد)، (١١٢/١).

(٥) أحكام ابن حزم (١٣٣/٨)، لسان العرب (٥٢/١)، مختار الصحاح ص (٥٥)، المصباح المنير ص (٦٢)، التعريفات ص (٢٨).

(٦) هو: علي بن أبي علي بن محمد ابن سالم الثعلبي، سيف الدين الآمدي، شيخ المتكلمين في زمانه ومصنف الأحكام، ولد بعد الخمسين وخمسمائة ببسبر، ومن تصانيفه المشهورة: الإحكام في أصول الأحكام، وغير ذلك، وتوفي في صفر سنة إحدى وثلاثين وستمائة. ينظر: طبقات الشافعية لابن السبكي (٣٠٦/٨).

(٧) الإحكام لابن حزم (١٤١/٤).

غيره في الملهمات والحوادث.

و قد صرح الشاطبي (رحمه الله) بعدم صحة عقد الإمامة لمن لم ينل رتبة الاجتهاد والفتوى، فقال: (إن العلماء نقلوا الاتفاق على أن الإمامة الكبرى لا تنعقد إلا لمن نال رتبة الاجتهاد والفتوى في علوم الشرع)^(١).

وذهب بعض العلماء إلى أن هذا شرط كمال وليس شرط صحة، ومن رأى أنه شرط صحة أجاز ولاية غير المجتهد عند الضرورة، وهذا ما صرح به الشاطبي بقوله: (إذا فرض خلو الزمان عن مجتهد يظهر بين الناس، وافتقروا إلى إمام يقدمونه لجريان الأحكام وتسكين ثورة الثائرين والحيطة على دماء المسلمين وأموالهم، فلا بد من إقامة الأئمة لمن ليس بمجتهد، لأننا بين أمرين، إما أن يترك الناس فوضى، وهو عين الفساد والهرج، وإما أن يقدموه فيزول الفساد به، ولا يبقى إلا فوات الاجتهاد)^(٢)، على أن الشروط المعتبرة، رغم نص العلماء عليها، ليست لازمة الوجوب كلها، بحيث لو وجد شخص فيه معظمها لا تنعقد له الإمامة حتى توجد فيه كلها، لا، بل إن في الأمر مرونة تناسب تغير الأحوال بل قال القرطبي: (يجوز نصب المفضل مع وجود الفاضل خوف الفتنة وألا يستقيم أمر الأمة، وذلك أن الإمام إنما نصب لدفع العدو وحماية البيضة وسد الخلل، واستخراج الحقوق وإقامة الحدود، وجباية الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها، فإذا خيف بإقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التي لأجلها ينصب الإمام، كان ذلك عذرا ظاهرا في العدول عن الفاضل للمفضل، ويدل على ذلك أيضا علم عمر وسائر الأمة وقت الشورى بأن الستة^(٣)، فيهم فاضل ومفضل)^(٤).

إن القرآن الكريم قد ذكر للحاكم الصالح صفات وملامح لا تقف عند حد الأجزاء والصحة، وإنما تتجاوزهما إلى حد السمو والرفعة، وكيف لا يكون الأمر كذلك، والحاكم هو أسوة العامة، وقائد الخاصة، والفرد الأول في الأمة، المقدم لقيادة الركب في كل المهمات والملهمات.

فقد كان الصديق t خليفة رسول الله r الأول من أعلم الناس بالله وأخوفهم له^(٥) وقد حكي الإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم، وسبب تقدمه على كل الصحابة في العلم

(١) الاعتصام للشاطبي، دار المعرفة بيروت (١٢٦/٢).

(٢) السابق، (١٢٦/٢).

(٣) الستة هم الذين نصح عمر t المسلمين أن يختاروا واحدا منهم لولاية الأمر بعده حين طلب إليه أن يعهد عهدا، وهم: علي، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله.

(٤) تفسير القرطبي، دار الكتاب العربي، القاهرة ط ٣ - ١٩٨٧م - (٢٥٩/٥).

(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي، دار صادر بيروت ط ١ - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م ص (٥٥٩)، مجموع الفتاوى، دار الوفاء، مكتبة

العبيكان، ط ١ - ١٤١٨هـ - ١٩٨٥م (١٢٧/١٣)، أبو بكر الصديق: محمد مال الله، مكتبة بن تيمية - ط ١ - ١٤١٠هـ =

والفضل ملازمته للنبي ﷺ؛ فقد كان أدوم اجتماعا به ليلا ونهارا، وسفرا وحضرا، وكان يسمر عند النبي ﷺ بعد العشاء، يتحدث معه في أمور المسلمين دون غيره من أصحابه، وكان إذا استشار أصحابه أول من يتكلم أبو بكر في الشورى، وربما تكلم غيره وربما لم يتكلم غيره فيعمل برأيه وحده، فإذا خالفه غيره اتبع رأيه دون رأي من يخالفه، وقد استعمله النبي ﷺ على أول حجة حجت من مدينة النبي ﷺ، وعلم الناسك أدق ما في العبادات، ولولا سعة علمه لم يستعمله، وكذلك الصلاة استخلفه عليها ولولا علمه لم يستخلفه، ولم يستخلف غيره لا في حج ولا في صلاة.

وكتاب الصدقة التي فرضها رسول الله ﷺ أخذه أنس من أبي بكر وهو أصح ما روي فيها^(١)، وعليه اعتمد الفقهاء وغيرهم في كتابه ما هو متقدم منسوخ، فدل على أنه أعلم بالسنة الناسخة، ولم يحفظ له قول يخالف فيه نصا، وهذا يدل على غاية البراعة والعلم. وفي الجملة: لا يعرف لأبي بكر مسألة في الشريعة غلط فيها، وقد عرف لغيره مسائل كثيرة.

وقد ظهر فضل علمه وتقدمه على غيره بعد وفاة الرسول ﷺ، فإن الأمة لم تختلف في ولايته في مسألة إلا فصلها هو بعلم يبينه لهم وحجة يذكرها لهم من الكتاب والسنة، وذلك لكمال علم الصديق وعدله، ومعرفته بالأدلة التي تزيل النزاع، ولا يمكن أبدا أن يكون إجماع الصحابة علي أبي بكر الصديق t بمعزل عن علمه واجتهاده، وهذا مما يؤكد أن أحد أهم أسباب الاجتماع علي الصديق بلوغه هذه المرتبة من العلم والفضل والاجتهاد.

فكان إذا أمرهم أطاعوه، كما بين لهم موت النبي ﷺ وتشيتهم على الإيمان، ثم بين لهم موضع دفنه، وبين لهم ميراثه، وبين لهم قتال مانعي الزكاة لما استراب فيه عمر، وبين لهم أن الخلافة في قريش، وتجهيز جيش أسامة وبين لهم أن عبدا خيره الله بين الدنيا والآخرة هو رسول الله ﷺ^(٢). ولا شك في أن عمر بن الخطاب t قد بلغ ما بلغه أبو بكر الصديق t، فلم يكن اختيار أبو بكر t له بمنأى عن شرط توافر العلم والاجتهاد في عمر وليس أعلم بتوافر هذا الأمر في عمر من أبي بكر الصديق، فأبي بكر أعلم الناس بشهادة النبي ﷺ لعمر t في هذا الميدان، فقد قال رسول الله ﷺ: "بينما أنا نائم شربت - يعني اللبن - حتى أنظر إني الري يجري في ظفري أو في أظفاري، ثم ناولت عمر. فقالوا: فما أولته قال العلم"^(٣).

= ١٩٨٦م (٣٣٤، ٣٣٥)، أبو بكر الصديق أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، دار القاسم، ط ١ - ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ص (٦٠).

(١) البخاري، رقم: ١٤٤٨.

(٢) فتح الباري (٤٦/٧)، مسلم باب من فضائل عمر (٢٣٩١).

(٣) الطبقات لابن سعد، دار الكتب العلمية بيروت (٣٣٨/٢).

والمراد بالعلم - في الحديث - سياسة الناس بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ واختص عمر بذلك لطول مدته بالنسبة إلى أبي بكر وباتفاق الناس على طاعته بالنسبة إلى عثمان فإن مدة أبي بكر كانت قصيرة فلم تكثر فيها الفتوح التي هي أعظم الأسباب في الاختلاف ومع ذلك فساس عمر فيها مع طول مدته الناس بحيث لم يخالفه أحد ثم ازدادت اتساعا في خلافة عثمان فانتشرت الأقوال واختلفت الآراء ولم يتفق له ما اتفق لعمر في طوعية الخلق له فنشأت من ثم الفتن إلى أن أفضى الأمر إلى قتله واستخلف علي فما ازداد الأمر إلا اختلافا والفتن إلا انتشارا.

وكذا كان أمير المؤمنين علي t من علماء الصحابة الكبار، وقد تميز t بجده في التحصيل، والتحري في قبول العلم، والسؤال في طلبه، واستخدام وسائل ضبط العلوم في زمنه، من كتابة، وتعهد، ولزوم النبي ﷺ.

حيث يقول t في جمعه للقرآن الكريم: آليت بيمين ألا أرتدي بردائي إلا إلى الصلاة حتى أجمع القرآن.

وقال: ما دخل نوم عيني، ولا غمض رأسي على عهد رسول الله ﷺ حتى علمت ذلك اليوم ما نزل به جبريل U، من حلال أو سنة، أو كتاب، أو أمر، أو نهي، وفيمن نزل. وكان t يتلقى النص من رسول الله ﷺ مباشرة، ولكن عندما يبلغه الحديث من غيره فإنه شديد التحري في قبوله، خشية أن ينسب لرسول الله ﷺ قولاً لم يقله.

وكان علي t من المكثرين من الفتيا في أصحاب رسول الله ﷺ، قال ابن القيم (رحمه الله): (الذين حفظت عنهم الفتوى، من أصحاب رسول الله ﷺ مائة ونيف وثلاثون نفساً، ما بين رجل وامرأة، وكان المكثرون منهم سبعة: عمر ابن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر)^(١).

وقد عدّ ابن حزم علياً t في المرتبة الثالثة من بين الصحابة y، في كثرة الفتيا، وكان t يحث على التزاور والمدارسة، حيث يقول:

تزاوروا وتدارسوا الحديث، ولا تتركوه يدرس^(٢).
وفي رواية: تزاوروا وتحدثوا، فإن لم تفعلوا فإنه يدرس^(٣).

(١) مسند الإمام زيد ص (٣٤٣) نقلاً عن منهج علي بن أبي طالب في الدعوة.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي (٢٣٦/١).

(٣) شرف أصحاب الحديث للبغدادي، ص (٩٣).

وكان أمير المؤمنين علي t يحث على لزوم الشيخ، والحرص على الأخذ منه، ويقول: ولا تشيع من طول صحبته، فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء^(١)، وقد تهيأ لعلي بن أبي طالب t، ملازمة رسول الله ﷺ صغيراً حين تربى في حجره، وكبيراً حينما كان صهره ووالد سبطيه، فكان بذلك قريباً من رسول الله، يأخذ عنه ويتعلم منه، وقد شهدت السيدة عائشة لعلي بلزومه لرسول الله ﷺ، فعن المقدم بن شريح، عن أبيه قال: سألت عائشة فقلت: أخبريني برجل من أصحاب النبي ﷺ أسأله عن المسح على الخفين، فقالت: انت عليا فسله، فإنه كان يلزم النبي ﷺ، قال: فأتيت عليا فسألته، فقال: أمرنا رسول الله ﷺ بالمسح على خفافنا إذا سافرنا^(٢)، وكان t يرى الانتقاء في العلوم فقد قال: العلم أكثر من أن يحفظ، فخذوا من كل علم محاسنه^(٣)، وقد وصل من العلم مرتبة جعلته يقول للناس وهو في العراق: سلوني، فعن سعيد بن المسيب رحمه الله قال: ما كان أحد من الناس يقول: سلوني غير علي بن أبي طالب^(٤) t وقد وثق الناس بعلمه سواء الصحابة أو التابعون، فعن ابن عباس، t، قال: إذا أتانا الثبت عن علي لم نعدل به^(٥)، وعنه أيضاً قال: إذا حدثنا ثقة عن علي بفتيا لا نعدوها^(٦)، وعن سويد بن غفلة أنه جاءه رجل يسأله عن فريضة رجل ترك ابنته وامراته، قال: أنا أنبتك قضاء علي قال: حسبي قضاء علي، قال: قضى علي لامراته الثمن، ولا بنته النصف، ثم رد البقية على ابنته^(٧)، وقد أثنى الناس عليه في علمه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أما إنه أعلم الناس بالسنة^(٨)، وكان معاوية رضي الله عنه يكتب فيما ينزل به ليسأل له علي بن أبي طالب t عن ذلك، فلما بلغه قتله، قال: ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب^(٩)، وعن الحسن بن علي، أنه خطب الناس بعد وفاة علي t فقال: لقد فارقكم رجل أمس، ما سبقه الأولون بعلم، ولا أدركه الآخرون^(١٠)، وعن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة - وقد سئل عن علي - فقال: كان لله والله ما شاء من ضرس قاطع السطة^(١١) في النسب، وقرابته من رسول الله ومصاهرته، والسابقة في الإسلام، والعلم بالقرآن والفقه بالسنة، والنجدة في الحرب، والجود في الماعون^(١٢)، وعن

(١) تذكرة السامع، ص (١٠٠).

(٢) مسند أحمد (١٩٥/٢) إسناده صحيح، تحقيق أحمد شاكر.

(٣) تاريخ البعقوي (٥/٢).

(٤) الاستيعاب، ص (١١٠٣).

(٥) المصدر السابق، ص (١١٠٤).

(٦) الطبقات (٣٣٨/٢).

(٧) سنن الدارمي (٣٧٥/٢).

(٨) الاستيعاب، ص (١١٠٤).

(٩) المصدر السابق، ص (١١٠٨).

(١٠) فضائل الصحابة (٥٩٥/٢) إسناده صحيح.

(١١) السطة: التوسط، والوسط في النسب هو أكرمهم وأشرفه.

(١٢) ذخائر العقبى للمحب الطبري، ص (٧٩).

مسروق قال: انتهى علم أصحاب رسول الله إلى عمر، وعلى، وابن مسعود، وعبد الله (رضي الله عنهم)^(١).

وقد ترك أمير المؤمنين t نصائح وإرشادات لطلاب العلم والعلماء والفقهاء تستحق أن تحفظ ويعمل بها.

لا شك أن كل ذلك لم يكن أبدا بمنأى عن اختيار الصحابة له t، وكذا سائر الخلفاء كما بينت، مما يدل على اعتبار العلم المؤدي إلى الاجتهاد كشرط لاختيار الخليفة لما في ذلك من ضمانة لحكم راشد وحكيم، وقد أثبتوا بالفعل باجتهادهم في المسائل المختلفة كم أن الاجتهاد والعلم بمناط الأحكام خير معين علي حكم عادل وراشد، وإذا تركنا عصر الراشدين وانطلقنا بعيدا لعصر آخر نتلمس فيه مدي أهمية أن يكون للحاكم علم يمكنه من تبصر حقائق المشاكل ووضع الحلول والمقترحات بما يكفل حكم نزيه وحكيم، فلن نجد أفضل من عمر بن عبد العزيز الذي أثبتت ولايته فعليا مدي أهمية العلم الموصل لدرجة الاجتهاد في كل جزئيات حكمه، فهذا الخليفة الذي شبه المؤرخون عصره بعصر الراشدين اتفقت كلمة المترجمين له على أنه من أئمة زمانه، فقد أطلق عليه كل من الإمامين: مالك وسفيان بن عيينة وصف إمام^(٢).

قال فيه مجاهد: (أبيناه نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه)^(٣)، وقال ميمون بن مهران: (كان عمر بن عبد العزيز معلم العلماء)^(٤)، وقال فيه الذهبي: (كان إماما فقيها مجتهدا، عارفا بالسنن، كبير الشأن، حافظا، قانتا لله أواها منيبا يعد في حسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر، وفي الزهد مع الحسن البصري وفي العلم مع الزهري)^(٥).

وقد احتج الفقهاء والعلماء بقوله وفعله ومن ذلك رسالة الإمام الليث بن سعد إلى الإمام مالك بن أنس رحمهما الله وهي رسالة قصيرة وفيها يحتج الليث — مرارا — بصحة قوله، بقول عمر بن عبدالعزيز على مالك فيما ذهب إليه في بعض مسائله^(٦)، ويرد ذكر عمر بن عبدالعزيز في كتب الفقه للمذاهب الأربعة المتبوعة على سبيل الاحتجاج بمذهبه، فاستدل الحنفية بصنيعه في كثير من المسائل وجعلوا له وصفا يتميز به عن جده لأمه: عمر بن الخطاب t، قال القرشي في

(١) تاريخ السيوطي ص (١٩٦).

(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٦٧/١).

(٣) تهذيب التهذيب (٤٠٥/٧) الآثار الواردة (٦٧/١).

(٤) تاريخ أبي زرعة ص ٢٥٥، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (٦٧/١).

(٥) تذكرة الحفاظ ص ١١٨ — ١١٩.

(٦) الآثار الواردة في عمر بن عبد العزيز في العقيدة (٧٠/١).

الجواهر المضيئة: (فائدة يقول: أصحابنا في كتبهم في مسائل الخلاف: وهو قول عمر الصغير. يريدون به عمر بن عبد العزيز الإمام الخليفة المشهور)^(١).

ويكثر الشافعية من ذكره في كتبهم ولذلك ترجم له الإمام النووي ترجمة حافلة في تهذيب الأسماء واللغات وقال في أولها: تكرر في المختصر والمهذب^(٢).

وأما المالكية فيكثرون من ذكره في كتبهم أكثر من غيرهم، ومالك إمام المذهب ذكر في ((الموطأ)) محتجا بفتواه وقوله في مواضع عديدة في موطنه^(٣).

وأما الحنابلة فكذلك، يذكرونه كثير.

قال فيه الإمام أحمد (رحمه الله): (لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز)^(٤).

وكفانا قول الإمام أحمد أيضا: (إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ويذكر محاسنه وينشرها فاعلم أن من وراء ذلك خيرا إن شاء الله)^(٥).

إن المهام المنوطة بالإمام تتطلب وجود هذا الشرط؛ لأن الحكم في الدولة الإسلامية معناه سياسة الدنيا بالدين ولاشك أنه سيواجه بمستجدات على مدار الحقبة الزمنية التي يتولى فيها الحكم وإن لم يكن صاحب اجتهاد؛ فلن يستطيع أن يضع حلولاً شرعية لبعض الوقائع ومن ثم فلا بد من توافر الاجتهاد في الشخص الذي يتولى أمر الأمة.

فالاجتهاد هو مفتاح الوصول إلى أحكام الله بعد أن انقطع الوحي، وتم التشريع، وكمل الدين، فلا مناص منه، ولا ملجأ لسواه، ولا سبيل لتركه، ففيه ينابيع الأحكام، ومعرفة الحلال والحرام، فالاجتهاد في علم السياسة الشرعية قائم على الأدلة من الكتاب والسنة ويعد من أهم الركائز التي تقوم عليها السياسة الشرعية، وطريق من طرق الحفاظ على خلودها، وصلاحياتها لكل زمان ومكان، ووسيلة التعرف على الأحكام الشرعية لما يجد من حوادث وقضايا دائمة الطوارئ على الحياة، وإيجاد الحلول الشرعية المناسبة لها.

(١) الجواهر المضيئة (٥٥٢/٤) الآثار الواردة (٧١/١).

(٢) المختصر والمهذب من كتب الشافعية المشهورة.

(٣) انظر: الموطأ الأرقام الآتية: ٣٠٥، ٥٩٢، ٥٩٤، ٦١٤.

(٤) البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة (٧٢/١).

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٦١.

المبحث الثاني: خصائص السياسة الشرعية:-

يتميز النظام السياسي الإسلامي عن الأنظمة السياسية الأخرى بميزات فريدة، وسمات مهمة، ترشحه لقيادة البشرية جمعاء، مهما اختلفت أجناسهم، وتنوعت ثقافتهم، وهذه السمات أيضا تجعله صالحا لتطبيقه والعمل به مهما اشد اختلاف الزمان والمكان.

ولعل أبرز هذه السمات توضحها المطالب التالية:

المطلب الأول: ارتباط السياسة الشرعية بالوحي الإلهي:-

السياسة الشرعية قائمة على الإسلام قولاً وفعلاً اتخذت من الوحي مرجعاً لها، ومن ثم ارتبطت السياسة الشرعية بالوحي الإلهي المتمثل في كتاب الله ﷻ وسُنَّته ﷺ لأن كل واحد من الكتاب والسنة وحي من الله ﷻ على ما قال الله ﷻ: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) (١)

إلا أن الكتاب متلو والسنة غير متلوة، ثم بعد ذلك وضع الفقهاء المعايير الشرعية التي تضمن سلامة اجتهادات الأمة وذلك بشرط ارتباطها بالوحي الإلهي .

إن أهم ما يمتاز به النظام السياسي الإسلامي عن الأنظمة السياسية: أنه نظام رباني، أسسه وقواعده وأحكامه ليست من وضع بشر يحكمه العجز والقصور، والتأثر بمؤثرات الهوى والعواطف، وإنما الذي شرع هذه الأسس والقوانين هو رب الناس وخالقهم، وهو أعلم بما ينفعهم وما يصلحهم، كما قال ﷻ: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (٢)، وقال ﷻ: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (٣).

أما الأنظمة السياسية الأخرى: فالبشر هم الذين وضعوها واخترعوها من عند أنفسهم، لا فرق في ذلك بين الدول الديمقراطية أو الشيوعية أو الديكتاتورية، وهذا التشريع حق لله وحده، لا يملكه أحد سواه، كما قال ﷻ: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ) (٤)، وقال ﷻ: (وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) (٥).

وحكمه ﷻ هو الحق والعدل المطلق، المشتمل على أعلى أنواع الحكمة والهداية، وليس فيه من تناقض، أو ميل لصالح طائفة على أخرى، وليس فيه عنت ومشقة، وما عداه فهو الظلم والباطل، فلا ينبغي للبشر أن يتخذوا حكماً غير الله ﷻ:

(١) سورة النجم : الآية (٤، ٣).

(٢) سورة الملك الآية (١٤) .

(٣) سورة المائدة الآية (٥٠) .

(٤) سورة الشورى الآية (٢١) .

(٥) سورة الكهف الآية (٢٦).

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا) (١).

وقد أنكر U على من لم يكتف بحكم كتابه المشتمل على كل خير وهداية: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (٢).

وقد ذم الله U اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، يشرعون لهم ويحللون ويحرمون، قال U منكرا عليهم: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ) (٣). عن عدي ابن حاتم، قال أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: "يا عدي اطرح عنك هذا الوثن"، وسمعه يقرأ في سورة براءة (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ) قال: "أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه" (٤).

الحكام والمحكومون في الدولة الإسلامية كلهم يطبقون شرع الله ويعملون بأحكامه، والحكام في الدول غير الإسلامية هم الذين يشرعون للمحكومين ويضعون لهم القوانين المختلفة التي أفرزتها زبالات أذهانهم.

وإذا كان النظام السياسي الإسلامي يتميز برابانية المصدر، فإنه كذلك يتميز برابانية الوجهة، أي أن هذا النظام يسعى جاهدا إلى ربط الناس بالله U حتى يعرفوه حق معرفته، ويتقوه حق تقاته، ويحررهم من العبودية لغيره والخضوع لسواه.

المطلب الثاني: الشق الديني والديني للسياسة :-

إن النظام الإسلامي: يقوم أول ما يقوم على أساس العقيدة، ويستمد منها نظرته إلى الكون والحياة، ولم يعتبر النظام السياسي الإسلامي في تكوين الدولة الجنسية أو العنصرية أو المواقع الجغرافية، لأن اعتبار هذه الروابط الأرضية ينافي سمة العالمية، وعموم الرسالة الإسلامية، فالرابطة التي تجمع أبناء الدولة الإسلامية هي رابطة العقيدة، بغض النظر عن العرق أو الجنس أو اللون، وهذا هو الرابط الذي يناسب كرامة الإنسان، وينبغي أن تغلب هذه الرابطة على كل رابطة سواها حتى رابطة النسب (٥)، من هنا يمكن القول أن من أهم خصائص السياسة الشرعية

(١) سورة الأنعام الآية (١١٤).

(٢) سورة العنكبوت الآية (٥١).

(٣) سورة التوبة الآية (٣١).

(٤) حديث حسن: أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني (٩٢/١٧)، وابن

جرير الطبري (٢١٠/١٤)، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي وحسنه ابن تيمية والألباني.

(٥) انظر "الحكم والتحاكم".

ارتباطها من الناحية الدينية بالجانب العقدي قال الله U: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) (١).

إن غاية الأمة الإسلامية حكاما ومحكومين غاية واحدة، وهي رفع راية الإسلام، والعمل على
تطبيق شرع الله في الدنيا، وإن السياسة الشرعية هي سياسة الدنيا بالدين، وهو عمل العامة
والخاصة ؛ فالكل معا على مبدأ واحد وغاية واحدة .

قال أبو بكر الصديق t عندما ولي الخلافة: ((أيها الناس، قد وليت عليكم وليس بخيركم،
فان أحسنت فأعينوني، وان أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم
قوى عندي حتى أرد عليه حقه إن شاء الله، والقوى منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن
شاء الله، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عندكم)) (٢).

المطلب الثالث: الوازع الأخلاقي والإنساني في السياسة:-

يقول النبي ٣ وهو يحث الناس على التحلي بالأدب الفاضل والخلق الكريم: ((إنما بعثت
لأتمم مكارم الأخلاق)) (٣)، لذا كان من أهم دعائم الحكم الإسلامي توافر الوازع الأخلاقي في
الحكام والقادة وفي هذا المضمار تفوق قادة وحكام المسلمين بما لا تجد له نظير البتة عند غيرهم
من لا يدينون في سياساتهم بالقواعد والنظم الشرعية التي جاء الإسلام يدعو إليها ويأمر بتطبيقها
وليس أدل على ذلك من ثناء الأعداء على أخلاقيات ومبادئ حكام المسلمين.

قال وليم موير^(٤) في كتابه الخلافة:- كانت البساطة والقيام بالواجب من أهم مبادئ عمر
وأظهر ما اتصفت به إدارته عدم الحيز والتعبد وكان يقدر المسؤولية حق قدرها وكان شعوره
بالعدل قويا ولم يحاب أحدا في اختيار عماله ومع انه كان يحمل عصاه ويعاقب المذنب في الحال
حتى قيل إن درة عمر أشد من سيف غيره إلا انه كان رقيق القلب وكانت له أعمال سجلت له
شفقته.

(١) سورة المجادلة الآية (٢٢).

(٢) ينظر : تاريخ الرسل والملوك (٢١٠/٣)، ونهاية الأرب في فنون الأدب ، للنويرى ، تحقيق : محمد أبى الفضل إبراهيم ، طبع الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٥٧٥ م .

(٣) أخرجه البيهقي (١٩٢/١٠)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، وأحمد (٣٨١/٢) بنحوه .

(٤) وليم موير: Sir William Muir مستشرق بريطاني. اسكتلندي الأصل، أمضى حياته في خدمة الحكومة البريطانية بالهند.
دخل النغال سنة ١٨٣٧ وعمل في " الاستخبارات " وتعلم الحقوق في جامعي جلاسجو Glasgow وايدنبرج
Edinburgh وكان " سكرتيرا " لحكومة الهند سنة ١٨٦٥ - ١٨٦٨ وتقلد مناصب أخرى. ثم عين مديرا لجامعة ايدنبرج
سنة ١٨٨٥ - ١٩٠٢ وتوفي بها، له "شهادة القرآن لكتب أنبياء الرحمن" وصنف بالإنجليزية كتباً في "السيرة النبوية" و "تاريخ
الخلافة الإسلامية" و "تاريخ دولة المالليك في مصر" وله مقالات في شعراء العرب، ينظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، ١٩٨٠،
موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بدوي، ١٩.

قال الأستاذ واشنجتون إيرفنج في كتابه محمد وخلفاؤه: (إن حياة عمر من أولها إلى آخرها تدل على أنه كان رجل ذا مواهب عقلية عظيمة وكان شديد التمسك بالاستقامة والعدل وهو الذي وضع أساس الدولة الإسلامية ونفذ رغبات النبي ﷺ وثبتها وآزر أبا بكر ؓ بنصائحه في أثناء خلافته القصيرة ووضع قواعد متينة للإدارة الحازمة في جميع البلدان التي فتحها المسلمون وإن اليد القوية التي وضعها على أعظم قواده المحبوبين لدى الجيش في البلاد النائية وقت انتصارهم لأكبر دليل على كفاءة الخارقة لإدارة الحكم وكان ببساطة أخلاقه واحتقاره للأبهة والطرف مقتديا بالنبي ﷺ وأبي بكر ؓ وقد سار على إثرهما في كتبه وتعليماته للقواد^(١)).

لاشك أن تلك الأخلاقيات التي أشار إليها المستشرقون في معرض أقوالهم العادلة عن قادة وحكام المسلمين وعلى رأسهم الخلفاء الراشدين كان لها أكبر الأثر في انتشار الإسلام في بلاد لم يرفع فيها سيف ولم تراق فيها قطرة دم كدول جنوب شرق آسيا وعلى رأسها اندونيسيا التي تعد واحدة من أكبر الدول الإسلامية من حيث عدد المسلمين فيها في التاريخ المعاصر . وهو الأمر الذي يدل على أن الإسلام هو الدين الوحيد القادر على اختراق قلوب ووجدان وعقول البشر في شتى بقاع الأرض فقط لو التزم أتباعه بنشر المذهب الأخلاقي الذي دل عليه وأمر به في سياساتهم الشرعية.

إن النظام السياسي الإسلامي يقوم على: الأخلاق والفضيلة واحترام حقوق الإنسان، فقد دعا إلى المحافظة على العهود والمواثيق ورعاية حقوق الإنسان ووقايته من الفتن والطغيان، فعامل الأسرى -على سبيل المثال- بالبر والإحسان إلى أن يطلق سراحهم بالمن أو الفداء، قال U: (فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً)^(٢)، وقال U: (وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)^(٣).

فالْحَرْبُ فِي الْإِسْلَامِ لَيْسَتْ حَرْبَ تَنْكِيلٍ أَوْ تَخْرِيبٍ، وَلَا يَجُوزُ قَتْلُ مَنْ لَمْ يَقَاتِلْ مِنَ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ وَالشُّيُوخِ وَالْعَجْزَةِ وَالْمَدَنِيِّينَ.

فعن ابن عمر ؓ قال: وَجَدْتُ امْرَأَةً مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ الْمَغَازِي، فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ "قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ"^(٤).

ولا يجوز كذلك التمثيل بالأعداء بعد قتلهم، لا بجذع آذانهم ولا أنوفهم ولا ببقر بطونهم،

(١) ينظر: محمد وخلفاؤه لواشنطن إيرفنج ص (٥٥)، ترجمة د/هاني يحيى نصري، نشر المركز الثقافي العربي التابع لمكتبة الإسكندرية

(٢) سورة محمد الآية (٤).

(٣) سورة الإنسان الآية (٨).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب قتل الصبيان في الحرب ح (٣٠١٥)، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب تحريم قتل

النساء والصبيان في الحرب ح (١٧٤٤).

إلا أن يفعلوا ذلك بالمسلمين فيفعل بهم مثل ما فعلوا، والترك أفضل^(١)؛ لقوله U: (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ)^(٢).

وعن بريدة t، قال: كان رسول الله r إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا^(٣)، ولا تغدروا^(٤)، ولا تمثلوا^(٥)، ولا تقتلوا وليداً^(٦)، وليس معنى ذلك أن المجاهد المسلم ممنوع من استخدام الوسائل التي ترمي إلى تضليل العدو في الحرب والتغريب به لكسب المعركة: فالجرب خدعة^(٧).

قال النووي (رحمه الله): "اتفقوا على جواز خداع الكفار كيفما أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان، فلا يجوز"^(٨).

وليس ثمة نظام في الدنيا يقدر فيه قيمة الإنسان ويحفظ حقوقه كالنظام الإسلامي، وإذا كان هذا النظام يحسن إلى الحيوان فكيف الإنسان؟!.

فعن عبد الله بن عمر t، أن رسول الله r قال: عُذِبَت امرأة في هرة سجنها حتى ماتت، فدخلت فيها^(٩) النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش^(١٠) الأرض^(١١).

وعن أبي هريرة t، أن رسول الله r قال: بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها، فشرب، ثم خرج، فإذا كلبٌ، يلهث^(١٢) يأكل الثرى^(١٣) من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني. فنزل البئر، فملاً خُفَّهُ

(١) انظر: إكليل الكرامة في بيان مقاصد الإمامة (١٩١).

(٢) سورة النحل الآية (١٢٦).

(٣) أي: لا تحونوا في الغنيمة.

(٤) أي: لا تنقضوا العهد.

(٥) أي: لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والأذان.

(٦) رواه مسلم كتاب الجهاد والسير باب تأمير الإمام الأمراء علي البعوث ح (١٧٣١).

(٧) متفق عليه: البخاري كتاب الجهاد والسير باب الحرب خدعة ح (٣٠٢٩)، ومسلم كتاب الكسوف باب التحريض علي قتل الخوارج ح (١٧٤٠).

(٨) شرح النووي لصحيح مسلم (٤٥/١٢)، وانظر: المخابرات في الدولة الإسلامية (٢٢٩).

(٩) أي: بسببها.

(١٠) خشاش الأرض: هوام الأرض وحشراؤها.

(١١) متفق عليه: البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، ح (٣٤٨٢)، ومسلم، كتاب: الآداب، باب: تحريم قتل الهرة (٢٢٤٢).

(١٢) "يلهث": أخرج لسانه من شدة العطش والحر.

(١٣) "الثرى": التراب الندي.

ماءً، ثُمَّ أَمْسَكْهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لِأَجْرٍ؟، فَقَالَ: فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ^(١) (٢).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ t، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَيْنَمَا كَلْبٌ يَطِيفُ بِرَكِيَّةٍ^(٣) قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَتَزَعَتْ مُوقَهَا^(٤)، فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ فَغَفَرَ لَهَا بِهِ^(٥).

وعن شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ t عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: إِنْ اللَّهُ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلِيُحَدِّثَ أَحَدَكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ^(٦)، وعن سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: مَرَّ ابْنُ عَمْرِو t بِنَفَرٍ قَدْ نَصَبُوا دَجَاجَةً يَتْرَامُونَهَا، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عَمْرِو، تَفَرَّقُوا عَنْهَا، فَقَالَ ابْنُ عَمْرِو t: "مَنْ فَعَلَ هَذَا؟" إِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنْ فَعَلَ هَذَا؟"^(٧).

إِنَّ الْإِسْلَامَ يَحْفَظُ قِيَمَةَ الْإِنْسَانِ وَيُعْظِمُ حَرَمَتَهُ فِي حَضُورِهِ، وَغِيَابِهِ، وَفِي ضَمَائِرِ النَّاسِ، بَلْ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ كَذَلِكَ، فَفِي حَضُورِهِ: حَرَمُ سَبِّهِ وَشَتْمِهِ وَاحْتِقَارِهِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِ وَحَرَمُ دَمِهِ وَمَالِهِ وَعَرْضِهِ، فَقَالَ ﷺ سَبَابُ الْمُسْلِمِ فَسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ^(٨). وَفِي غِيَابِهِ: حَرَمُ التَّجَسُّسِ عَلَيْهِ وَتَتَبِعِ عَوْرَتِهِ وَغَيْبَتِهِ، كَمَا قَالَ U: (وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا)^(٩). وَفِي ضَمَائِرِ النَّاسِ: حَرَمُ قَهْمَتِهِ وَسُوءِ الظَّنِّ بِهِ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ).

وَقَالَ ﷺ: "إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحْسَسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا"^(١٠). وَبَعْدَ مَمَاتِهِ حَرَمُ أَنْ يَذْكَرَ بِسُوءٍ، وَجَعَلَ كَسْرَ عَظْمِهِ كَكُسْرِهِ حَيًّا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامٍ تَرْفَعُ مِنْ قِيَمَةِ الْإِنْسَانِ.

(١) "في كل ذات رطبة أجر" معناه: في الإحسان إلى كل حيوان حي أجر، وسمي الحي ذا كبد رطبة، لأن الميت جف جسمه وكبدته.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري، في كتاب المساقاة، باب: فضل سقي الماء ح (٢٣٦٣)، ورواه مسلم، في كتاب الآداب، باب: فضل سقي البهائم ح (٢٢٤٤).

(٣) "يطيف بركية": أي يدور حول البئر.

(٤) الموقى: الحف.

(٥) مسلم كتاب الآداب باب فضل ساقى البهائم المحترمة (٢٢٤٥).

(٦) رواه مسلم كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان باب الأمر بإحسان الذبح والقتل ح (١٩٥٥).

(٧) رواه مسلم كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان باب النهي عن صبر البهائم ح (١٩٥٨).

(٨) متفق عليه: البخاري كتاب الإيمان باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر ح (٤٨)، ومسلم كتاب الإيمان باب بيان قول النبي ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ح (١١٦).

(٩) سورة الحجرات الآية (١٢).

(١٠) متفق عليه: البخاري، كتاب: الأدب، باب: ما ينهي عن التحاسد والتدابير (٦٠٦٤)، ومسلم كتاب: البر والصلة، والآداب باب: ما ينهي عن التحاسد والتباغض والتدابير (٢٥٥٨).

والنظام السياسي في الإسلام لا يعرف الاستعلاء، ولا السطو على مقدرات الشعوب، ولا العمل بالدس والخديعة.

يقول جوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب": (لما أجلى النصارى العرب سنة (١٦١٠) من أسبانيا اتخذوا جميع الذرائع للفتك بهم، فقتل أكثرهم، وكان مجموع من هلك من العرب ثلاثة ملايين، في حين أن العرب لما فتحوا أسبانيا تركوا السكان يتمتعون بحريتهم الدينية محتفظين بمعاهدتهم ورئاستهم غير مكلفين إلا بدفع الجزية، وقد بلغ تسامح العرب طوال حكمهم في أسبانيا مبلغاً قلماً يصادف مثله في هذه الأيام).

عن عروة بن الزبير ^١، قال: "مر هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأنباط بالشام، قد أقيموا بالشمس، فقال: ما شأنهم؟ قالوا: حُبسوا في الجزية، فقال هشام: أشهد لسمعتُ رسول الله يقول: إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا، وزاد في رواية: "وأمرهم يومئذ عمير بن سعد على فلسطين، فدخل عليه، فحدثه فأمر بهم فخلوا"^(١). ولقد أسر (ريتشارد) قائد الحملة الصليبية ثلاثة آلاف مسلم، وأعطاهم الأمان، ثم قتلهم جميعاً^(٢).

النظام السياسي الإسلامي هو النظام الوحيد في تاريخ البشرية الذي أكرم أتباع الأديان الأخرى، ولم يضطهدهم بسبب دينهم، قال نصارى الشام حين دخلها المسلمون بقيادة أبي عبيدة بن الجراح: (أنتم ولستم على ديننا أرأف بنا من أهل ديننا)^(٣).

ولما انتصر المسلمون على التتار، واعتنق ملوكهم الإسلام، فك التتار أسرى المسلمين، واحتفظوا بأسرى اليهود والنصارى، فأرسل شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أمير التتار يقول: "لا بد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذي هم من أهل ذمتنا" فأطلق سراحهم!. وهذا عمر بن الخطاب يفرض لسائل يهودي من بيت مال المسلمين قائلاً لعماله: "انظروا هذا وضرباءه"^(٤).

فالنظام الإسلامي يُحسن معاملة الذين لم يدخلوا فيه، ولكن بشرط ألا يكونوا معتدين، قال الله ﷻ:

(١) رواه مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق، ح (٢٦١٣).

(٢) فقه السياسة الشرعية لخالد العنبري ص (٤١).

(٣) السابق.

(٤) موقف المسلمين أهل الذمة وعلاقة المسلمين بأهل الذمة عبر العصور، من كتاب دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، د/ محمد

محمد عبد القادر الخطيب.

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) ^(١).

المطلب الرابع: عالمية السياسة الشرعية :-

ترتبط السياسة الشرعية بصلة وثيقة بالشرعية الإسلامية وقواعد الفقه الإسلامي، وإذا أطلقت السياسة الشرعية اتجهت الأنظار إلى الشرعية الإسلامية ؛ إذ السياسة الشرعية عالمية في أساسها وفي واقعها وفي شكلها وفي عقيدتها وفي شعائرها وشريعتها لجميع البشر على وجه الأرض قاطبة، ثم إن كمال الشرعية الإسلامية من خلال ما تضمنته وأحاطت به من أحكام وتشريعات قد سبقت في ذلك شتى التشريعات الوضعية قديمها وحديثها، فاستحقت أن تكون السياسة الشرعية التي هي من مضمون الشرعية الإسلامية خالدة بما اختصها الله تعالى به.

إن خصائص النظام السياسي الإسلامي ومقوماته: جعلته نظاما عالميا، تشريعاته وقوانينه صالحة لكل زمان ومكان، وذلك لأنها اشتملت على جميع مصالح الناس ومنافعهم، ولأنها كذلك من لدن حكيم خبير يعلم ما كان وما يكون، ومن الأدلة على سمة العالمية قوله ﷺ: (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) ^(٢). وقوله ﷺ: (قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) ^(٣).

ومن السنة حديث المقداد بن الأسود ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر، ولا وبر، إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر" ^(٤).

وحديث ثوبان ؓ، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله زوى ^(٥) لي الأرض، فرأيت مشارقتها ومغاربها، وإن أمتي سيلغ ملكها ما زوى لي منها" ^(٦).

وقد تحقق هذا خلال التاريخ الإسلامي حيث كانت الدولة الإسلامية تحكم مساحات شاسعة من الأرض، وتحكم أمما شتى، وأجناسا مختلفة.

(١) سورة الممتحنة الآية (٨).

(٢) سورة القلم الآية (٥٢).

(٣) سورة الأعراف الآية (١٥٨).

(٤) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٤/٦)، والطبراني (٦٠١/٢٠)، والحاكم (٤٣٠/٤) والبيهقي (١٨١/٩)، وابن حبان (٦٦٩٩/١٥) وغيرهم.

(٥) "زوى": معناه: جمع وضم.

(٦) رواه مسلم كتاب الفتن وأشرط الساعة باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ح (٢٨٨٩).

المطلب الخامس: مناسبة السياسة الشرعية للعصور المختلفة :-

من خصائص الحكم الإسلامي: تميزه بالكمال وتميزه بالشمول، وهذا الكمال دل عليه قوله U: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) ^(١). وهذا الكمال يتلزم معه الشمول، بمعنى شمول الشريعة لكل ما يحتاجه الناس على الإطلاق، فلا تخلو حادثة عن حكم الشريعة في جميع الأعصار والأمصار والأحوال. وقد مرت على البشرية خلال تاريخها الطويل أشكال وأنواع من الشرائع المادية والأرضية، ولكن واحدة منها لم تدع العموم والشمول الذي ميز الله به الشريعة الخاتمة. إنه شامل للفرد، وشامل لأحوال الأسرة، وشامل للمجتمع في علاقاته المدنية والتجارية، وشامل لما يتصل بالجرائم وعقوباتها المقدرة شرعا كالحُدود، والمتروكة لتقدير أهل الشأن كالتعازير، وهذا يشمل ما يسمى الآن "بالتشريع الجنائي" أو "الجزائي" وقوانين العقوبات. وشامل لما يتعلق بواجب الحكومة نحو المحكومين، وواجب المحكومين نحو الحكام وتنظيم الصلة بين الطرفين، وشامل لما ينظم العلاقات الدولية في السلم والحرب ^(٢).

السياسة الشرعية هي باب من أبواب الشريعة الإسلامية مؤهلة لاستيعاب مشاكل البشرية، وقادرة على تنظيم حياتهم في كل مكان حلوا فيه وفي أي زمان وجدوا فيه، وقدرتها من قدرة الفقه الإسلامي على النماء والتجديد، وهذه أكبر ميزة فيه؛ لأن القدرة فيه على النماء والتجديد تعطيه مرونة في مواجهة كل طريف، وعلاج كل طارئ على الساحة، وحل كل مشكلة فيه مهما بلغ حجمها ونوعها.

إن مما هو ثابت أن الفقه الإسلامي هو العامل الأساسي الذي أسهم في بناء المجتمع الإسلامي وتكوين شخصيته المستقلة، وبناء حضارته المتميزة، واتساع عمرانها الشامخ، وامتداد سلطانه إلى جميع البشر؛ ذلك لأن الفقه يقود إلى العدالة، ويشرع الحقوق ويصونها، ويلاءم الفطرة السليمة، ويساير التطور في كل زمان ومكان بفضل ما تتميز به نصوصه من مرونة وقابلية للتطبيق.

المطلب السادس: مراعاة السياسة الشرعية للمصالح العامة :-

المراد بالمصلحة العامة هو مقاصد الشارع وهي المصالح التي تعود إلى الخلق في دنياهم وأخراهم، سواء أكان تحقيقها عن جلب المنافع والمصلحة أو عن طريق دفع المضار والمفسدة ^(٣). فإذا توافرت للأمة الإسلامية هذه الأمور فقد تحققت مصالحهم العامة وأهدافهم السامية، وأن

(١) سورة المائدة الآية (٣).

(٢) انظر: "الحكم والتحاكم" (٣٧٦ - ٣٧٩).

(٣) ينظر: شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل، لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي محمد بن محمد بن محمد الطوسي، تحقيق: د. حمد الكبيسي، ط مطبعة الإرشاد، ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م، ص (١٠٣)، والموافقات، للشاطبي (١٣/٢).

الشارع الإسلامي قد شرع الأحكام في مختلف مجالات أعمال الإنسان لتحقيق مصالح وطموحات الأفراد والجماعات^(١) ذلك لأن استقراء النصوص الشرعية إنما وضعت من أجل تحقيق المصالح العامة لأفراد الرعية، وفي هذا يقول الإمام الشاطبي: (إن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل)^(٢)، فالسياسة الشرعية فكرة منضبطة نظراً لأنها تقوم على أحكام شرعية جاءت في الكتاب والسنة وفي الوقت ذاته ليست جامدة وإنما تدور مع مصالح الأمة ولكن في إطار الثوابت التي جاءت بها الشريعة الإسلامية^(٣).

المطلب السابع: موافقة السياسة الشرعية للفطرة :-

تعد السياسة الشرعية نموذجاً يحقق التوسط والتوازن والاعتدال، وأنه نظام فريد مستقل بنفسه، قائم بذاته، له خصائص ومزايا تميزه عن كل ما عداه من النظم الأخرى الوضعية في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتشريع، وأنه لا قصور فيه عن معالجات المشكلات والأوضاع الحديثة، وليس في مقدور أحد أن يغير فيها أو يبدل، ولا في استطاعته أن يستبدل بها شيئاً؛ لأنه خلق الله، قال تعالى: (لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)^(٤).

المطلب الثامن: العدالة والمساواة :-

قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)^(٥)، فالآية تأمر بالعدل بين جنس الناس لا بين أمة منهم دون أمة، أو جنس دون جنس، أو لون غير لون، وقد أمر الله رسوله ﷺ أمراً صريحاً بهذا العدل، كما في قوله ﷺ: (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ)^(٦).

وأمر المؤمنين بالعدل فقال: (اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)^(٧)، وقال: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى)^(٨).

و أمرهم بالعدل في الأمور القولية فقال: (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)^(٩).

(١) ينظر: علم أصول الفقه، للشيخ عبد الوهاب خلاف، دار القلم، القاهرة، ص (١٩٨).

(٢) الموافقات (٣/٢)

(٣) مصادر الالتزام، د. عبد الهادي العطافي، المؤلف (دون تاريخ)، ص (٢٤٠)، نظرية القانون، د. عبد الفتاح عبد الباقي، ص

(١٢٦)، المدخل لدراسة العلوم القانونية، د. عبد الحي حجازي، ص (١٦٤).

(٤) سورة الروم : الآية (٣٠).

(٥) سورة النساء الآية (٥٨).

(٦) سورة الشورى الآية (١٥).

(٧) سورة المائدة الآية (٨).

(٨) سورة النحل الآية (٩٠).

(٩) سورة الأنعام الآية (١٥٢).

يقول ابن كثير (رحمه الله): في تفسير هذه الآية: (يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت، وفي كل حال)^(١).

وأمرهم بالعدل في الأمور الفعلية فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ)^(٢)، وأمرهم بالعدل في الأمور المالية فقال: (وَلْيَكُتَبْ بَيْنَكُمُ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ)، وقال: (فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ)^(٣)، وأمرهم بالعدل في الأمور القضائية فقال: (وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ)^(٤).

وأمرهم بالعدل في الأمور السياسية والحكومية فقال: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)^(٥)، وأمرهم بالعدل مع الأعداء فقال: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)^(٦).

وحذرهم U أن يتركوا العدل أبدا، فقال: (فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا)^(٧).

قال ابن كثير (رحمه الله): (أي فلا يحملنكم الهوى والعصية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشئونكم، بل ألزموا العدل على أي حال كان)^(٨).

إن هذه العدالة لا تقوم إلا بعد أن يترسخ مفهوم المساواة المشروطة بين الناس^(٩) قال U: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)^(١٠).

فالمسلمون كلهم جميعا سواء، إنما يتفاضلون بالأمور الدينية، طاعة الله U، وطاعة رسوله ﷺ، وهذا ما قرره نبي الإسلام ﷺ في قوله: إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم^(١١).

ولقد حسم الرسول ﷺ هذا المبدأ أيضا وقرره في خطبته التي ودع فيها أهل الدنيا "خطبة

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير الدمشقي ج ٣ ص (٣٦٥).

(٢) سورة النساء الآية (١٣٥).

(٣) سورة البقرة الآية (٢٨٢).

(٤) سورة الطلاق الآية (٢).

(٥) سورة النساء الآية (٥٨).

(٦) سورة البقرة الآية (١٩٣).

(٧) سورة النساء الآية (١٣٥).

(٨) تفسير القرآن العظيم لابن كثير الدمشقي، (٤٣٣/٢).

(٩) انظر: الحكم والتحاكم (٤٠٤-٤١٣).

(١٠) سورة الحجرات الآية (١٣).

(١١) رواه مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله (٢٥٦٤).

الوداع" قال: يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى^(١).

وكما رفع الإسلام من شأن المساواة، فقد حط من شأن العصبية والعنصريات. قال رسول الله ﷺ: إن الله U قد أذهب عنكم عبية^(٢) الجاهلية وفخرها بالآباء، فالناس رجالان: مؤمن تقى، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان^(٣) التي تدفع بأنفها النتن^(٤).

وعن جابر t قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فكسع^(٥) رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يالأنصار! وقال المهاجري: ياللمهاجرين. فقال رسول الله ج: ما بال دعوى الجاهلية. قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: دعوها، فإنها منتنة^(٦) (٧).

وعن المعرور بن سويد، قال: لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة، وعلى غلامه حلة فسألته عن ذلك. فقال: إني ساببت رجلاً فعبته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: يا أبا ذر أعبرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم^(٨) جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم، فأعينوهم^(٩).

فالعصبية للجنس، أو للقبيلة، أو للوطن، عصبية جاهلية، ليست من الإسلام في شيء، فقد كان أهل الجاهلية يأخذون الحقوق بالعصبات والقبائل، فجاء الإسلام بإبطال هذه العصبية، وفصل القضايا بالأحكام الشرعية، وأعطى كل ذي حق حقه من غير تفريق بين عربي وعجمي، وأبيض وأسود، وهكذا يقيم النظم الإسلامي مجتمعات نظيفة رفيعة، لكل فرد فيها كرامته التي لا تمس، وحقوقه التي لا تخدش.

وإذا كان الحق ما شهدت به الأعداء، فإن أعداء الإسلام قديما وحديثا، شهدوا للحكم

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد في مسنده (٤١١/٥)، وأبو نعيم في حليته (١٠٠/٣)، وانظر: غاية المرام (٣١٣).

(٢) أي: فخرها وكبرها ونخوتها.

(٣) جعل: جعل بضم الفاء، وهي دوية سوداء تدفع العذرة بأنفها.

(٤) حديث حسن: أخرجه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٢٧٠)، وأحمد (٣٦١/٢)، و٥٢٤، والبيهقي (٢٣٢/١٠)، وغيرهم، وانظر: غاية المرام (٣١٢).

(٥) أي: ضرب دبره وعجزته، بيد أو رجل، أو سيف، أو غيره.

(٦) أي: قبيحة كريهة مؤذية.

(٧) متفق عليه: البخاري كتاب تفسير القرآن باب سورة المنافقون ص (٤٩٠٧)، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب باب نصر الأخ ظالم أو مظلوم ص (٢٥٨٤).

(٨) الخول: مثال الخدم والحشم، وزناً ومعنى، من التخويل بمعنى الإعطاء والتملك.

(٩) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (٣٠).

الإسلامي بأنه حكم العدالة والمساواة، فمنذ عهد النبوة جاء كفار بني إسرائيل يشدون العدالة عند نبينا ج بعد أن آيسوا من تحصيلها عند قضائهم وحكامهم.

ويقول المؤرخ الشهير "غوستاف لوبون" في كتاب "حضارة العرب": (الحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينا سمحا مثل دينهم).

ونقل عن عدد من المؤرخين الأوروبيين شهاداتهم عن عدالة الإسلام التي شهد لها الواقع التطبيقي في تاريخ المسلمين، فنقل عن أحدهم ويدعى "روبرستون" قوله: (إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح والعدل نحو أتباع الأديان الأخرى)^(١).

ونقل عن آخر يدعى "ميشود" قوله: (إن القرآن الذي أمر بالجهاد، متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وقد أعفى البطارقة والرهبان من الضرائب، وحرم محمد قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصراني بسوء حين فتح بيت المقدس في حين ذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة وقتما دخلوها)^(٢).

ويدي "ول ديوارنت" الدهشة للدرجة التي وصل إليها مفهوم المساواة تحت حكم الإسلام فيقول: "كان يسمح للعبيد أن يتزوجوا وأن يتعلم أبناءهم إذا أظهروا قدرا كافيا من النباهة، وإن المرء ليدعش من كثرة أبناء العبيد والجواري الذين كان لهم شأن عظيم في الحياة العقلية والسياسية في العالم الإسلامي"^(٣).

المبحث الثالث: قواعد السياسة الشرعية :-

المطلب الأول: العدل:-

العدل مما أمر به الله سبحانه وتعالى في كتابه الجيد، إذ به تستقيم الأمور وتسير في مسارها الصحيح، وبه تطمئن قلوب الناس إلى نيل حقوقهم، قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)^(٤).

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا كونوا من أصحاب النفوس الطيبة والهمم العالية، الذين يتقنون أعمالهم، ويخلصون فيها لله تعالى، سواء منها الأعمال الدنيوية والدنيوية، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، والإتقان والإخلاص أساس النجاح، أما الشهادة بالقسط وتحري العدل فهي

(١) فقه السياسة الشرعية لخالد العنبري ص (٤٧).

(٢) السابق.

(٣) انظر: الحكم والتحاكم، لعبد العزيز كامل، (١/٤٢٢-٤٢٣).

(٤) سورة المائدة: الآية (٨).

الدعامة الأولى لسعادة الأمم، وانتشار الطمأنينة في ربوعها، وانصراف كل إلى عمله، وأنت متى لم تحاب أحدا في شهادتك، وقمت بها عادلا، ولم تراع قرابة ولا صداقة، ولم تخش في الله لومة لائم كانت شهادتك بالقسط^(١)، وجاء تعبير بلفظ (قَوَّامِينَ) لإفادة المبالغة والدوام والاستمرار في القيام بالعدل، ثم يكمل الله U الآية فيقول: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا)^(٢)، أي لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل فتعتدوا عليهم بأن تنتصروا منهم وتشفوا بما في قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا يحل لكم من مثله أو قذف أو قتل أولاد أو نساء أو نقض عهد أو ما شبه ذلك^(٣).

ثم يختتم الحق تبارك وتعالى الآية الكريمة بالأمر بالتقوى بقوله: (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)^(٤)، وذلك اعتناء بشأنها، وتنبيهها على أنها ملاك الأمر.

والمعنى: واتقوا الله في جميع أعمالكم، فانه خير بها، مطلع عليها، لا يخفى عليه شيء من أحوالكم، فيجازيكم على ذلك إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وقد قرر القرآن الكريم هذا المبدأ في أكثر من موضع، ففي سورة النساء نظير لهذه الآية الكريمة التي معنا، وهي قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)^(٥).

وقد أمر الله تعالى بالقسط والعدل في أكثر من موضع في القرآن الكريم، يقول الله تعالى: (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ)^(٦)، يقول الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)^(٧).

يقول الشيخ محمد عزة دروزة معلقا على هذه الآية الكريمة والآيتين التاليتين لها^(٨): ((عبارة الآيات واضحة، وقد احتوت أولاها هتافا للمسلمين بأن يكونوا قوامين لله فيما أمر ونهى مراعين

(١) ينظر: التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، دار التفسير للطباعة والنشر، ط ١٠، ١٩٩٢م، (٦/٣٤).

(٢) سورة المائدة: الآية (٨).

(٣) ينظر: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عادل

عبدالموجود، وعلى محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط (١)، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، (١/٥٩٨٠).

(٤) سورة المائدة: الآية (٨).

(٥) سورة النساء: الآية (١٣٥).

(٦) سورة الأعراف: الآية (٢٩).

(٧) سورة النحل: الآية (٩٠).

(٨) هما قوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ

أَصْحَابُ الْحَجِيمِ [المائدة: ٩ - ١٠].

جانبه وحده في الشهادة بالقسط والحق والعمل بمهما والتعاون على إقرارهما دون أن يكون لبغضهم لقوم ما تأثير يؤدي إلى الاختلال بواجب العدل والانحراف عن جادة القسط والحق فهذا هو واجبهم وهو الأثل بالمؤمنين^(١).

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: (فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عبادته، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عبادته، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء ونواب الخليفة، ونواب القاضي).

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاملات، بإيفاء جميع ما عليك فلا تبخس لهم حقاً ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى - وإن كان داخلاً في العموم - لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك.

ويدخل في ذلك جميع الأقارب قرييهم وبعيدهم لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر. وقوله: (وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ) وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقه والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش. ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى.

وبالبعي كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض، فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه، وبما يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبما يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء.

(١) ينظر: التفسير والحديث، طبعة دار إحياء الكتب العربية، (٧٠/٩، ٦٩/٩).

ولهذا قال: (يَعْظُكُم بِهِ) أي: بما بينه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرركم، (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) ما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه، فإنكم إذا تذكروتموه وعقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها^(١).

المطلب الثاني: المساواة :-

١- تعرف المساواة لغة واصطلاحاً :-

أ- المساواة لغة: تعنى : التماثل والتعادل، يقال : ساواه :أي : مثله وعادله، وساوى هذا بذاك : رفعه حتى بلغ قدره ومبلغه .

ب- المساواة اصطلاحاً: يراد بها: أن يتساوى الناس جميعاً في الحقوق والواجبات دون تفرقة أو تمييز بسبب جنس أو طبقة أو مذهب أو عصبية أو حسب أو نسب أو مال ... الخ.
فتعد المساواة في السياسة الشرعية من أركان الدولة وهى أن يكون الناس جميعاً أمة واحدة لا يتميز احد في تطبيق القانون العام للدولة عن الآخرين بسبب الجنس أو اللون أو العصبية^(٢).

٢- مقياس التفاوت بين الناس في الإسلام :-

ميزان التفاضل بين الناس يكمن فيما في قلوبهم من تقوى وصلاح، قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) ^(٣)،

ويقول النبي ﷺ في خطبة الوداع: ((أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر؛ إلا بالتقوى؛ أبلغت؟))، قالوا: بلغ رسول الله ﷺ ^(٤).

٣- موقف الإسلام من المساواة بين الجنسين :-

يعد مبدأ المساواة احد المبادئ العامة التي اقرها الإسلام وهي من المبادئ التي تساهم في بناء المجتمع المسلم ولقد اقر الإسلام هذا المبدأ وسبق به تشريعات وقوانين العصر الحاضر .

ومما ورد في القرآن الكريم تأكيداً لمبدأ المساواة قول الله ﷻ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ) ^(٥).

وقال الرسول ﷺ ((يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة ص (٤١٠)

(٢) دور كليات وسائل النور في يقظة الأمة، أ.خديجة النراوي، دار سوزلر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص (٢٨٨).

(٣) سورة الحجرات : الآية (١٣).

(٤) أخرجه احمد في المسند (٤١١/٥)، وقال الهيثمي في الجمع (٢٦٩/٣): ورجاله رجال الصحيح.

(٥) سورة الحجرات الآية (١٣)

أعجمي، ولا لأعجمي علي عربي، ولا أحمري على أسود ولا لأسود على أحمري إلا بالتقوى^(١).
إن هذا المبدأ كان من أهم المبادئ التي جذبت الكثير من الشعوب قديماً نحو الإسلام، فكان
هذا المبدأ مصدراً من مصادر القوة للمسلمين الأولين^(٢)، وليس المقصود بالمساواة هنا:
((المساواة العامة)) بين الناس جميعاً في كل أمور الحياة كما ينادي بعض المخدوعين ويرون ذلك
عدلاً^(٣).

فإن مما لا يجب أن نغض الطرف عنه كما فعل المتسولون علي موائد الغرب ومن تسبوا في
تغريب الأمة وتخريب عقول أبنائها تحت مظله هذا المبدأ الذي ظنوا أن تطبيقه في بلاد الإسلام
من شأنه أن يرفع من شأنها ويجعلها في مصاف الدول المتقدمة فأصابوا بذلك أخلاقيات الأمة في
مقتل.

إن الله ﷻ خلق الخلق علي التفاوت وإن البشرية لن ينصلح حالها لاسيما الذين يدينون
بالإسلام منهم إلا بالتسليم للفوارق الطبيعية الجبلية التي خلق الله الخلق عليها والتي من شأنها
إحداث التوازن الاجتماعي بين مختلف عناصره هذا التوازن المفقود الآن ليس في الدول التي
تدين بالإسلام فحسب بل في العالم أجمع.

قال الله ﷻ: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ
فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٤)، وقال تعالى: (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ
رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)^(٥)، فالاختلاف في المواهب والقدرات
والتفاوت في الدرجات غاية من غايات الخلق^(٦).

ولكن المقصود المساواة التي دعت إليها الشريعة الإسلامية مساواة مقيدة بأحوال فيها
التساوي وليست مطلقة في جميع الأحوال^(٧) فالمساواة تأتي في معاملة الناس أمام الشرع والقضاء
وكافة الأحكام الإسلامية والحقوق العامة دون تفريق بسبب الأصل أو الجنس أو اللون أو
الثروة أو الجاه أو غيرها^(٨).

(١) أخرجه احمد / باقي مسند المكثرين / حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) انظر: مبادئ نظام الحكم في الإسلام / عبد الحميد متولي ص (٣٨٥).

(٣) ينظر: الأخلاق الإسلامية وأساسها للميداني (١/٦٢٤).

(٤) سورة الأنعام الآية (١٦٥).

(٥) سورة الزخرف الآية (٣٥).

(٦) ينظر: فلسفة التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلاني، ص (١٧٩).

(٧) ينظر: الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، شوكت محمد، ص (٣٠٨).

(٨) ينظر: مبادئ علم الإدارة، محمد نور الدين، ص (١١٦).

وجاءت ممارسات المسلمين التطبيقية خير شاهد علي ذلك، فهذا أبو بكر ؓ في أول خطبه له بعد أن تولي الخلافة يقول: (وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني القوي فيكم ضعيف عندي حتى اخذ الحق منه والضعيف فيكم قوي عندي حتى اخذ له حقه)^(١).

وهذا عمر بن عبدالعزيز لما تولى الخلافة أقسم أنه يود أن يسوي في المعيشة بين نفسه وعشيرته وبين الناس، فقال: (أما والله لوددت انه بدئ بي وبلحمي التي أنا منها حتى يستوي عيشنا وعيشكم أما والله لو أردت غير هذا من الكلام لكان اللسان به منبسطا ولكنت بأسبابه عارفا)^(٢)، وقال في خطبة له (... ما منكم من احد تبلغنا حاجته إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه....)^(٣)، ولقد مارس عمر بن عبدالعزيز مبدأ المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات في كل مجالات الحياة فلم يميز بين الناس في حقهم في تولي الوظائف والولايات ولم يعط أحداً كائناً من كان شيئاً ليس له فيه حق فقد ساوى بين أمراء وأشراف بني أمية وبين الناس فمنع عنهم العطايا والأرزاق الخاصة وقال لهم حين كلموه في ذلك (لن يتسع مالي لكم وأما هذا المال الذي في بيت مال المسلمين فإنما حقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد)^(٤).

كما ساوى بين من أسلم من أهل الأديان الأخرى من النصارى واليهود وبين المسلمين وعمل علي كسر حاجز التنافر بينهم فقال (فمن أسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي من أهل الجزية اليوم فخالط عامة المسلمين في دارهم وفارق داره التي كان بها فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه)^(٥).

وفي مجال المساواة بين الناس أمام القضاء وأحكام الإسلام نكتفي بهذا الموقف الذي كان عمر بن عبدالعزيز فيه احد أطراف النزاع أمام القاضي، وتفصيل ذلك أنه أتى رجل من أهل مصر عمر بن عبدالعزيز، فقال له: يا أمير المؤمنين إن عبدالعزيز -يقصد والد عمر- أخذ أرضي ظلماً، قال: وأين أرضك يا عبدالله؟ قال: في حلوان، قال عمر: اعرفها ولي شركاء -أي شركاء في حلوان- وهذا الحاكم بيننا، فمشي عمر إلى الحاكم فقضي عليه، فقال عمر: قد أنفقنا عليها قال القاضي ذلك بما نلت من غلتها فقد نلت مثل نفقتكم فقال عمر: لو حكمت بغير هذا ما

(١) البداية والنهاية، لابن كثير، (٢٤٨/٥)

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ابن عبد الحكم ص (١١٢).

(٣) تاريخ الأمم والملوك / أبو جعفر بن جرير الطبري (٥٧١/٦).

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص (٢٣٦-٢٣٧).

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص (٨١).

وليت لي أمرا أبدا وأمر بردها^(١)

من ذلك يتضح جليا مقصود الإسلام من مبدأ المساواة ألا وهو المساواة في الحقوق والواجبات وأمام القضاء وفي العبادات وليس المقصود المساواة بين الجنسين وما إلي ذلك مما يدعو إليه من خلاق لهم ولا حظ لهم من العلم المنضبط ولا نصيب ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٤ - الفرق بين العدالة والمساواة:

العدالة: هي أن ينال كل ذي حق حقه، والمساواة: هي أن ينال الجميع حقوقا متساوية، بيد أن المساواة هي الغاية المرجوة التي تسعى العدالة إلى تحقيقها، و العادل هو الذي يحكم بالسوية، لأنه يخلف صاحب الشريعة في حفظ المساواة، وقد جاء في تعريف العدل أنه: القسط اللازم للاستواء - أي: لتحقيق المساواة بين الطرفين دون زيادة أو نقصان^(٢).

وعن العلاقة بين العدالة والمساواة، يقول د. يحيى بسيوني: ((ولما كانت العدالة خلقا أو هيئة نفسانية تصدر عنها المساواة، فقد اقترن الأمران وارتبطا وثيقا؛ لان العادل من شأنه أن يساوي بين الأشياء الغير متساوية، ولما كان الأمر كذلك، فان كليهما قد يستعمل استعمال الآخر تسامحا ولكنهما غالبا ما يستعملان معا^(٣))).

ومن ثم فان المساواة ناتجة عن العدالة؛ لأنه إذا تحقق العدل بين الأفراد كانت المساواة في الأشياء التي عدل فيها.

بل إن المساواة تعد جزءا أساسيا من العدل، والعدل في اللغة هو الحكم بالحق وهو نقيض الظلم والجور، وهو الوسيلة والتوازن، أي: موازنة بين الطرفين المتنازعين أو المختلفين دون ميل أو تحيز إلى احدهما ضد الآخر، وهو بعبارة أخرى موازنة بين الإطراف بحيث يعطى كل منهم حقه دون بحس ولا جور عليه^(٤).

فالعدل يمثل الدعامة والميزة الحقيقية للشريعة الإسلامية وفي ذلك يقول الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا)^(٥).

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ماجدة زكريا، ص (٢١٠).

(٢) ينظر: مجلة الحرس الوطني، آفاق إسلامية، د. يحيى بسيوني، مقال ((القسط والعدل والمساواة مصطلحات شرعية))، ٢٠٠٨م.

(٣) ينظر: مجلة الحرس الوطني، آفاق إسلامية، د. يحيى بسيوني، مقال ((القسط والعدل والمساواة مصطلحات شرعية))، ٢٠٠٨م.

(٤) ينظر: الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، دار الصحابة للتراث والنشر، طنطا، مصر، ١٤٠٤هـ، ص (١٢٣).

(٥) سورة النساء: الآية (١٣٥).

وقد أكد ذلك رسول الله ﷺ حيث قال: ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل (...)) الحديث^(١)، وقال ﷺ: ((إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قلتم فأحسنوا، فإن الله U محسن يحب الإحسان))^(٢).

أما المساواة اصطلاحاً فهي خضوع لسلطان أحكام الإسلام الذي لا يفرق بين واحد وآخر، وليس لأحد أن يدعى الرقي والتمتع بالحقوق دون سواه فلكل سواء .

قال د/عبد الرحمن حسن حبنكة في كتابه كشف زيوف درءا لهذه الأكذوبة (المساواة المطلقة): ومن الشعارات التي أطلقتها الماسونية شعار المساواة، تضليلاً للناس، وفتنة لهم، لتقوم الصراعات بين الأفراد وبين الطبقات مطالبين بتحقيق المساواة المنافية والمصادمة لقانون الحق والعدل، ولقد قامت الثورة الفرنسية التي دبرها المكر اليهودي تحمل شعارها المثلث، والمساواة أحد أركانها.

واندفعت الجماهير مفتونة بشعار المساواة، ومخدوعة بالمساحة القليلة المقبولة منها، ولكن اللعبة المضللة زحفت بالمساواة زحفاً تعميمياً باطلاً، وناشراً لفساد عريض.

وقامت فتن عامة تطالب بتحقيق المساواة، ونجم عن ذلك خلخلة في نظام الحياة، وإفساد للمجتمع البشري.

وزحف هذا الشعار إلى أدمغة مفكرين وعلماء وكتاب، فجعلوه في مقولاتهم أحد المبادئ الإنسانية الصحيحة، وأحد المبادئ الإسلامية الجيدة، غفلة منهم، وانسياقاً مع بريق الشعارات التي تروجها وسائل الإعلام الشيطانية المضللة.

وتحت هذا الشعار الخادع البراق أخذ الجاهلون يطالبون بمساواة العلماء، والضعفاء بمساواة الأقوياء، والكسالى يطالبون بمساواة العاملين المجدين، والمنحرفون يطالبون بمساواة ذوي الاستقامة، والنساء يطالبن بمساواة الرجال في كل شيء، والفاشلون يطالبون بمساواة الناجحين، واضطربت الحياة، وقامت الثورات، واستثمرها اليهود لمصالحهم.

المفهوم الإسلامي للمساواة:-

نظام الخلق تحكمه سنة التفاضل لا التساوي، فشعار المساواة بصيغته التعميمية يتنافى مع نظام الخلق، هو مطلب مناقض لمبدأ العدل، إلا في بعض الأحوال، وهي التي يقضي العدل فيها بالتساوي.

فالإسلام يحمل ويحمي مبدأ العدل، ومبدأ الإحسان، ولا يقر المساواة على اعتبارها مبدأً

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٠/٦).

عاما، وقاعدة مطردة، إنما يقرها حينما يقتضيها العدل، أو يتبرع بها المحسنون. وإنما يقتضي العدل المساواة حينما تكون واقع الأفراد واقعا متساويا تماما في كل الصفات، أو تكون المساواة في الصفات التي كان فيها التساوي، دون الصفات الأخرى المتفاضلة فيما بينها.

التفاضل سنة الله في الخلق:-

إننا لا نكاد نجد في الوجود شيئين ولو كانا من جنس واحد، أو من نوع واحد متساويين تماما في كل صفاتهما، بل صفاتهما متفاضلة، فالدعوة إلى المساواة بينهما دعوة إلى الأخذ بأمر باطل، وإلى إلغاء قانون العدل، وادعاء المساواة مع واقع التفاضل ادعاء كاذب، والتسوية بين المتفاضلين عمل ظالم مناقض لقانون العدل، وكل ذلك مناقض لكلمة الله التشريعية، التي تمت صدقا وعدلا، قال الله U (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)^(١)، أما كلمة الله التكوينية فقد حددت لها الإرادة الربانية خلقا متفاضلا، وهذه ظواهر الخلق شواهد هل الزجاج والماس متساويان؟.

أليست أحجار الماس متفاضلة فيما بينها؟، أليست أحجار الزجاج متفاضلة فيما بينها؟. هكذا نجد التفاضل في الشجر وفي الثمر، وبين أنواع الأحياء، وبني كل فرد وفرد آخر من كل نوع، وكذلك بين الناس.

فهل يصح عقلا أن ندعي التساوي بينها وهي في الواقع متفاضلة؟ إننا بذلك نكذب على الواقع، ونجانب الحق.

وهل يصح عقلا أن نسوي بينها في الأحكام مع تفاضلها؟، إننا بذلك نجانب مبدأ العدل ونصادمه، ونقيم أحكامنا على الظلم.

فمطلب المساواة مع واقع التفاضل مطلب ظالم مخالف للحق والعدل. وقد دلت النصوص القرآنية على التفاضل في الخلق بين الأشياء ، ويتبع ذلك التخالف في الحكم، وعدم جواز التسوية بين المتفاضلات.

١ - في تفضيل الثمرات والزررع بعضها على بعض في الأكل، قال الله U: (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)^(٢).

٢ - في تفضيل بعض الناس على بعض فيما يصيبون من عطاء الله، لبيتليهم فيه،

(١) سورة المائدة الآية (١١٥).

(٢) سورة الرعد الآية (٤).

قال الله U (كُلًّا تُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا *
انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآ خِرَّةَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) (١).

٣- فهمي الله المؤمنين عن تمني ما فضل الله به بعض الناس على بعض، فخطأهم بقوله U في
سورة النساء: (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا
وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) (٢).

٤- بين الله U حكمته في جعل الرجال قوامين على النساء، ومنها أنه قد فضل في خصائص
التكوين صنف الرجال على صنف النساء، فقال U (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ
اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) (٣).

٥- بين الله U أنه فضل بعض الناس على بعض في الرزق ليلوهم فيما آتاهم ، فقال U
(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ) (٤).

٦- حتى الأنبياء والرسل قد فضل الله في منحه وعطاياه بعضهم على بعض، فقال U
(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ
زَبُورًا) (٥)، وقال U (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ
دَرَجَاتٍ) (٦).

٧- في تكريم بني آدم وتفضيلهم على كثير من خلق الله ، قال الله U
(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ
مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (٧)

فالتفاضل سنة الله في الخلق ، يشهد به الواقع ، وتثبتته النصوص الربانية المنزلة .

التسوية بين المتفاضلات ظلم للحق :-

ولما كان منطق العقل وبرهان الواقع يقرران عدم التساوي بين المتفاضلات، كانت أحكام
التسوية بينها أحكاما ظالمة.

وتأصيلا للحق والعدل، ولئلا تزين للناس أفكار التسوية بين المتفاضلات، أنزل الله U في
كتابه نصوصا ذوات عدد، تبين عدم التساوي بين طائفة من المتفاضلات في حقيقة أمرها، فمنها

(١) سورة الإسراء الآية (٢٠)

(٢) سورة النساء الآية (٣٢) .

(٣) السابق الآية (٣٤) .

(٤) سورة النحل الآية (٧١) .

(٥) سورة الإسراء الآية (٥٥) .

(٦) سورة البقرة الآية (٢٥٣) .

(٧) سورة الإسراء الآية (٧٠) .

ما يلي:

١ - قول الله U (قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) ^(١).

٢ - وقول الله U (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) ^(٢).

٣ - قول الله U (أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) ^(٣).

٤ - قول الله U (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ * إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ) ^(٤).

٥ - ولما كان التفضيل التابع للعمل الأفضل من المكلفين المختارين، هو الأمر الذي يوجبه الحق والعدل ، كان من العدل أن يفضل الله المجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم على القاعدين ، فقال الله U (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) ^(٥).

وكان من العدل أن يفضل الله من أنفق من قبل فتح مكة وقاتل، على من أنفق بعد الفتح وقاتل، فقال الله U (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) ^(٦).

وكان من العدل أن لا يسوي الله بين المسلمين والمجرمين، فقال الله U (إِنْ لِّلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) ^(٧).

نظرات حول مواقع التساوي:-

أما الأمور التي هي متساوية في واقع الحال فالحق يقضي بالتسوية بينها .

فالناس متساوون في عبوديتهم لله، فهم متساوون بين يديه .

(١) سورة المائدة الآية (١٠٠) .

(٢) سورة الرعد الآية (١٦) .

(٣) سورة الزمر الآية (٩) .

(٤) سورة فاطر الآية (١٩) .

(٥) سورة النساء الآية (٩٥) .

(٦) سورة الحديد الآية (١٠) .

(٧) سورة القلم الآية (٣٤) .

والناس متساوون في حق الحياة إلا إذا كان منهم ما يقتضي إهدار دمائهم، أو إنزال قيمتها، فالمسلمون متكافأ دماؤهم .

والخصمان في مجلس القضاء هما من رعاية القاضي حقان متساويان، فينبغي التسوية بينهما في مجلس القضاء .

والأصل تساوي الناس في حق العمل والكسب والتعلم والسبق لاغتنام خيرات الدنيا والآخرة ، فالعدل يقضي بإتاحة الفرص لهم جميعا بنسبة متساوية، ثم يكون لكل بحسب ما يقدم من عمل أو جهد أو أي كسب إرادي أو سبق في علم أو خلق أو رأي أو إخلاص أو غير ذلك مما له قيمة تقدر.

والناس متساوون في إنسانيتهم، فلا فضل لعرق على عرق، ولا لقوم على قوم، ولا لأهل لون على أهل لون آخر، ولا لأهل لسان على أهل لسان آخر، من أجل أعراقهم، أو أقوامهم، أو ألوانهم، أو ألسنتهم، فكلهم من آدم، وهو الأب الأول لهم جميعا، وكلهم مخلوقون لله U . وهكذا كل قضية يكون الحق فيها بين فريقين متساويين، فقاعدة العدل توجب التسوية بينهما، وكل تفاضل على غير أساس من الحق والواقع في مفاهيم الناس فهو في الإسلام ظلم اجتماعي، كمفاهيم التفاضل الطبقي الذي يزعم الطبقيون أنه يورث.

أما إذا كان الواقع متفاضلا فالعدل يوجب التفضيل، كالذكاء والجمال، والقوة، وحسن الخلق الفطري أو المكتسب، وغير ذلك مما لا حصر له.

فالإسلام يقوم في الحقوق على مبدأ العدل، لا على مبدأ المساواة، وفي بيان الواقع يقوم على ما هو الحق في واقع الحال، لا على التسوية مطلقا، وإن كان الواقع متفاضلا، فلا يمكن أن يساوي النقص الكامل، ولا أن يستوي الحق والباطل، ولا العالم والجاهل، ولا يمكن أن يتساوى الذهب والقصدير، ولا المسك والجير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، ولا الطيب والخبيث، ولا الأحياء ولا الأموات، ولا الذين آمنوا وعملوا صالحا، والذين كفروا وعملوا السيئات .

المطلب الثالث: الشورى:-

١ - أهمية الشورى في السياسة الشرعية :-

لا شك أننا أمام واحد من أهم مبادئ النظام السياسي الإسلامي وأنا إذا أردنا إصابة كبد الحقيقة فعلينا الكلام عن هذا المبدأ في مؤلف منفرد إلا أننا سنكتفي هنا بالإشارة السريعة لبعض متعلقات الشورى باعتبار أننا أمام مقدمات لا كليات فنحن لا يمكن بحال أن نتطرق إلى المؤسسة السياسية الإسلامية دون الحديث عن واحدة من أعظم مميزات هذه المؤسسة فالإسلام جاء بمبدأ

إنساني غاية في العظمة والروعة وهو مبدأ الشورى بل سميت سورة من سور القرآن الكريم باسم الشورى دلالة علي أهمية هذا الشرط في أي شأن من شئون المسلمين، وعلي الرغم من اختلاف الفقهاء حول آليات تنفيذ هذا المبدأ من ناحية الاختيار أو الوجوب والإلزام لكنهم مجمعون علي ضرورة تحقيقها بين المسلمين^(١) مصداقا لقول الله ﷻ (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)^(٢).
أولا تعريف الشورى:-

طلب الرأي ممن هو أهل له أو هي استطلاع رأي ألامه أو من يتوب عنها في الأمور العامة المتعلقة بها^(٣)، وعليه فقد اتخذ المسلمون الشورى أصلا وقاعدة من أصول الحكم وقواعده وعليها قام ترشيح العدول من المسلمين لمن يروونه أهلا للقوة والإمامة لتولي أمرهم ومما يؤكد ذلك ويؤصله أن الرسول لم يترك نصا مكتوبا ولم يستخلف أحدا ليتولي إمامه المسلمين وإنما ترك الأمر شورى بينهم، وقد روي أبو وائل أنه قيل لعلي بن أبي طالب ؑ ألا تستخلف علينا؟ قال "ما استخلف رسول الله ﷺ فاستخلف ولكن إن يرد الله بالناس خيرا فسيجمعهم بعدي علي خيرهم كما جمعهم بعد نبيهم علي خيرهم"^(٤)

ثانيا أهمية الشورى:- تعتبر الشورى أصلا من الأصول الأولى للنظام السياسي الإسلامي بل امتدت لتشمل كل أمور المسلمين وتأسيسا علي ذلك فإن الدولة الإسلامية تكون قد سبقت النظم الديمقراطية الحديثة في ضرورة موافقة الجماعة علي اختيار من يقوم بولاية أمورها ورعاية مصالحها وتدبير شئونها مما يؤكد قيمة وفاعلية الإجماع عند المسلمين^(٥).
ثالثا أهل الحل والعقد :-

لكن من هم أهل الشورى ؟ أو أهل الاختيار؟ أو كما قال عنهم فقهاء المسلمين ومؤرخوهم أهل الحل والعقد، وهناك اتفاق بأن الشورى في الإسلام منوطة بفئة من المسلمين يطلق عليهم أهل الشورى (الحل والعقد)، وقد تحدث الفقهاء عن ضرورة توافر بعض الشروط فيهم وهي:
العدالة والعلم والرأي والحكمة ومن ثم يمكن إجمالهم في العلماء والرؤساء ووجوه الناس الذين يتيسر اجتماعهم^(٦)

لذلك كانت الشورى من الأمور الضرورية والعوامل المساعدة لولاية الأمور لاتخاذ القرار

(١) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٢٤٨-٢٥٢/٢)، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٢/١٥٠)، والكاساني: بدائع الصنائع (٧/١٢) والقرافي: الذخيرة (٧٥-١٠٧٦)، والشافعي: الأم (٥/١٦٨)، وابن قدامة: الشرح الكبير (١١/٣٩٩).

(٢) سورة آل عمران الآية (١٥٩).

(٣) نظام الدولة في الإسلام وعلاقتها بالدول الأخرى د. جعفر عبد السلام ص (١٩٩).

(٤) رواه الحاكم في المستدرک/كتاب معرفة الصحابة/باب أبي بكر الصديق (٤٤٦٣) وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٥) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية د. فتحية النراوي ص (٢٤-٢٥).

(٦) النووي: المنهاج (١٢/٧٧).

المناسب ويمكن القول أنها من أهم المظاهر الحضارية التي أسهم المسلمون في إيجادها وإرسائها في المجتمع الإسلامي وتأثر بها الآخرون خاصة في أوروبا منذ القرن الثالث عشر الميلادي ولذلك كانت الشورى نوعاً من التعبير عن الإرادة الإلهية استناداً إلى ما يقوله الرسول ٣ ((إن أمتي لا تجتمع على ضلالة))^(١).

رابعاً الفرق بين الشورى والديمقراطية:-

يبقى أن نشير إلى أن نظام الشورى الإسلامي يختلف كثيراً عن النظم الديمقراطية الوضعية فالديمقراطية التي تعتبر حكم الشعب للشعب ينتج عنها أن الشعب هو الذي يضع دستوره وقوانينه وهو السلطة القضائية التي تحكم بين الناس بتطبيق القوانين الموضوعية وحتى يتمكن الشعب من مباشرة سلطه التشريع ووضع القوانين والفصل بين السلطات يتم اللجوء إلى إجراء انتخابات عامة والتي ينتج عنها اختيار مجموعه من الأفراد يكونون قادرين على مراقبه سائر السلطات فمن حق هذه الهيئة المنتخبة عزل الوزراء ومحاسبة المسؤولين وعلى رأسهم رئيس الدولة، هذا الحق ولا شك ينافي مبدأ السلطة، وميزة الهيبة التي ينبغي أن يتمتع بها الحاكم، لا لكون هذه الهيبة ميزة شخصية، ولكن لكونها أحد الأسباب التي تحمل الرعية على تمام الطاعة وحفظ مكانة الإمام في النفوس، وهي أحد أجزاء الحكم التي تحول بين حثالة الناس وغوغائهم وبين الخروج على الإمام وإن جار وظلم، ولا شك في أن هذا أحد أهم مقاصد الشريعة.

لكن نظام الشورى الإسلامي يختلف عن هذا التصور، فالشورى في الإسلام تقوم على حقيقة مفادها أن الحكم هو حكم الله المنزل بواسطة الوحي على رسول الله ٣، الذي يعد الالتزام به أساس الإيمان، والعلماء هم أهل الحل والعقد وهم على رأس رجال الشورى، وليس للعلماء مع حكم الله U في إطار الشورى إلا الاجتهاد في ثبوت النص ودقه الفهم ورسم الخطط المنهجية للتطبيق.

والحق أن النظام الديمقراطي يسهل التحايل عليه من خلال سيطرة بعض الأحزاب أو القوي على العمل السياسي في دوله من الدول ومن ثم يفرض هذا الحزب أو تلك الفئة وجه نظرها على ألامه، لكن الشورى تجعل الهيمنة لله وحده U فنعلي حكمه وتشريعه على سائر الأحكام والتشريعات فتؤدي إلى ظهور رجال يعيشون في معية الله U ويخشونه بصدق^(٢).

ويبقى أن نشير إلى أن هذا النظام الإسلامي الباهر ظهر في وقت سيطرة الديكتاتوريات على

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب: الفتن، باب: السواد الأعظم (٣٩٥٠)، والترمذي (٢١٦٧)، وأبو داود (٤٢٥٣)، وأحمد

(٢٧٢٦٧)، ومسنند عبد بن حميد (١٢٢٤)، والحاكم في المستدرك (٨٦٦٤)، وقال: هذا حديث صحيح عي شرط الشيخين

ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر: النظام السياسي في الإسلام، أحمد أحمد غلوش، ص (٦١-٦٤).

أنظمة الحكم في العالم سواء في بلاد الفرس أو الروم أو الهند أو الصين وان العالم لم يعرف هذه الشورى ولا حتى الديمقراطية الأقل شانا من الشورى إلا بعد ما يقرب من اثني عشر قرنا للحضارة الإنسانية .

وبعد فإننا لن نستطيع أن نستقصي كل ما أتت به هذه الحضارة الإسلامية العريقة وكفي ما مر بنا دليلا علي رقي وعظم حضارتنا في مجال من أهم مجالاتها علي الإطلاق.

٢- نماذج من الشورى في السنة :-

ومن النماذج التي حرص النبي ﷺ علي المشاورة فيها ما يلي :-

١ - ما حدث في موقعة بدر حين نزل ﷺ عند أدنى ماء فقال الحباب بن المنذر يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمتزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال ((بل هو الرأي والحرب والمكيدة)) فقال : يا رسول الله ليس هذا بمنزل فأنهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال الرسول ﷺ ((لقد أشرت بالرأي))^(١) وعمل برأي الحباب بن المنذر .

٢ - عن انس t قال : استشار رسول الله ﷺ الناس في الآسارى يوم بدر فقال: ((إن الله قد أمنكم منهم))، فقال عمر بن الخطاب t: يا رسول الله، اضرب أعناقهم، قال فاعرض عنه رسول الله ﷺ ثم عاد ﷺ فقال: ((يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس))^(٢) فقال عمر مثل ذلك فاعرض عنه U . ثم عاد U فقال مثل ذلك . فقال أبو بكر t: يا رسول الله، نرى أن تعفو عنهم وان تقبل منهم الفداء، قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان من الغم، ثم عفا عنهم وقبل منهم الفداء، وانزل الله: (لَوْ لَّا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)^(٣).

ومن ثم يتضح لنا أن النبي ﷺ قد شاور أصحابه أكثر من مرة وفي أكثر من موضع، ولو تأملنا كيفية مشاورة رسول الله ﷺ لأصحابه في أهم وأدق الأمور لوجدنا انه ﷺ كان يتيح حرية الحديث لكل صاحب رأى، ويفسح صدره لكل متحدث، ويستمع لكل من يريد أن يتكلم من غير أن يسفله رأيا ولا يحط من قيمة حديثه^(٤) أصحابه في الأمور السياسية وغيرها استرشادا

(١) ينظر: الإصابة، لابن حجر (٣٠٢/١)، ومختصر سيرة ابن هشام (٣٨١/١)، وفقه السيرة النبوية، د.محمد سعيد البوطي، دار الفكر، ١٤١٩ هـ، ص (١٥٧)، وتفسير القرطبي (٣٧٥/٧).

(٢) أخرجه احمد في المسند (٢٤٣/٣)، حديث رقم (١٣٥٨٠)، حديث حسن.

(٣) سورة الأنفال : الآية (٦٨).

(٤) ينظر : الرأي العام في الإسلام د.عبد الوهاب كحيل ، ص(١١٦).

برأيهم بل كان ينزل عن رأيه أحيانا إلى رأى احدهم ويعمل به .

وفي ضوء ما تقدم كله يمكن القول بأنه لا مشاورة في مجال المنصوص عليه بأدلة قطعية لا تحتل أي تأويل، لان الإلزام حينئذ يكون بحكم الشرع الذي يجب على السلطة الحاكمة والأمة الإسلامية التسليم به والخضوع له، أما إذا كان النص محتملا لاختلاف الآراء في فهم معناه فيمكن في هذه الحالة أن تكون الشورى في تفهم المراد من النص واستطلاع الرأي، لأنه ربما يكون في المسألة نص خفي على بعض أعضاء مجلس الشورى دون بعض، أو تكون الشورى بقصد الوصول إلى فهم صحيح لنص معين اختلفت الأنظار في فهمه، فإذا وضح النص، فلا مجال للتشاور بعد، بل يجب التسليم المطلق والانقياد لأمر الله ورسوله^(١)

٣- مدي إلزام الشورى:-

إذا كانت الشورى مقررة بنصوص القرآن والسنة وكان إتباع هذه النصوص واجبا علي الحاكم وكان نطاق الشورى يشمل ما اشرنا إليه في الفقرات السابقة من مسائل فانه يبقي علينا أن نبحث مدي إلزام الرأي الذي تنتهي إليه الشورى أو ما يعرف بمسألة هل الشورى ملزمة أو معلمه ؟.

في هذا الخصوص نجد أننا أمام رأيين متعارضين:

أحدهما يقول أصحابه: إن الشورى ملزمة للحاكم إذا استقر رأي أهلها أو غالبيتهم علي شيء وجب علي الحاكم أتباعه .

أما الرأي الثاني: فيرى أصحابه: انه لا يجب علي الحاكم أن يفعل ما انتهت إليه أكثرية المشيرين وإنما يكفي أن يشاورهم ثم يمضي بعد ذلك فينفذ ما يراه راجحا عنده خالف في ذلك رأي أهل الشورى أو وافقهم.

ويستدل أصحاب هذا الرأي الأخير بتفسير المفسرين لقول الله U (عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)^(٢)، إذ يذهب هؤلاء إلي أن معني هذا النص أن للرسول أن يأخذ بما انتهت إليه الشورى أو يدعه.

والصحيح إذا ما تأملنا أدله القائلين بان الشورى معلمه لوجدنا ذلك موافقا لهدي رسول الله ﷺ في مشاورته أصحابه (لاسيما في صلح الحديبية الذي اعترض الصحابة عليه من أوله لآخره واشتد النكير لما اعترض رئيس وفد قريش علي جملة رسول الله ﷺ قائلوا لو اعلم انك رسول الله ما خالفتك افترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله ﷺ اكتب اسمك واسم أبيك فاعترض

(١) الإمامة العظمى، عبدالله الدميحي، ص (٤٤٠).

(٢) سورة آل عمران الآية (١٥٩).

المسلمون علي ذلك ولكن رسول الله ﷺ بحكمته وتسامحه وبعد نظره حسم الخلاف وأمر الكاتب بان يشطب كلمة رسول الله ﷺ من الوثيقة فالتزم الصحابة الصمت والهدوء^(١)، وكذا في فعل أصحابه بعده بلا ريب في مشاورتهم أهل الحل والعقد في الأمور المختلفة (فعندما كثر الإلحاح علي أبي بكر لإبقاء جيش أسامة في المدينة دعا عامه المهاجرين والأنصار إلي اجتماع في المجلس لمناقشة هذا الأمر معهم وفي هذا الاجتماع دار نقاش طويل متشعب وكان أشد المعارضين لاستمرار حملة الشام عمر بن الخطاب مبديا تخوفه الشديد علي الخليفة وحرّم رسول الله ﷺ وكل المدينة وأهلها من أن تقع في قبضة الأعراب المرتدين المشركين وعندما أكثر وجوه الصحابة بهذا الصدد علي الخليفة وخوفوه مما ستعرض له المدينة من أخطار جسام إن هو أصر علي تحريك جيش أسامة لغزو الروم أمر بفض الاجتماع الأول^(٢) بعد أن سمع الصديق لرأيهم واستوضح منهم إن كان لأحدهم ما يقول وذلك حتى يعطي إخوانه وأهل الرأي كامل الفرصة لبيان رأيهم^(٣) ثم دعاهم لعقد اجتماع عام آخر في المسجد وفي هذا الاجتماع طلب من الصحابة أن ينسوا فكرة إلغاء مشروع وضعه رسول الله ﷺ بنفسه وابلغهم انه سينفذ هذا المشروع حتى لو تسبب تنفيذه في احتلال المدينة من قبل الأعراب المرتدين فقد وقف خطيبا وخاطب الصحابة وقال^(٤)، (والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تحطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته)^(٥).

نعم لقد كان أبو بكر مصيبا فيما عزم إليه من بعث أسامة مخالفا بذلك رأي جميع المسلمين لان في ذلك أمرا من رسول الله ﷺ وقد أثبتت الأيام والأحداث سلامه رأيه وصواب قراره الذي اعتمزم تنفيذه^(٦)، وفي موضع آخر أشار بعض الصحابة ومنهم عمر علي الصديق بان يترك مانعي الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم ثم هم بعد ذلك يزكون فامتنع الصديق عن ذلك وأباه^(٧).

عن أبي هريرة ؓ قال ((لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي بكر كيف تقاتل الناس وقد قال ﷺ "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا

(١) المغازي، للواقدي محمد عمر بن واقد المتوفى ٢٠٧ هجرية تحقيق د/مارسدن جونس عالم الكتب بيروت ط ٣ ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، (٢/٦١٠).

(٢) الشورى بين الأصالة والمعاصرة /عز الدين التميمي ص (٨٢-٨٣)

(٣) ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية/عدنان النحوي ص (٢٥٧)

(٤) الشورى بين الأصالة والمعاصرة /عز الدين التميمي ص ٨٣

(٥) تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر الطبري /دار الفكر بيروت ط ١ ١٤٠٧ هجرية - ١٩٨٧ م (٤/٤٥)

(٦) الشورى بين الأصالة والمعاصرة /عز الدين التميمي ص ٨٣

(٧) البداية والنهاية لابن كثير /دار الريان القاهرة ط ١ ١٤٠٨ هجرية - ١٩٨٨ م (٦/٣١٥)

إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه^(١) وحسابه علي الله" فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقاً^(٢) كانوا يؤدونها لرسول الله ٣ لقاتلتهم علي منعها قال عمر فوالله ما هو إلا أن شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت انه الحق^(٣)، ثم قال عمر بعد ذلك والله لقد رجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه ألامه جميعا في قتال أهل الردة^(٤)، وفعلا كان رأي أبو بكر في حرب المرتدين رأيا ملهما وهو الرأي الذي تمليه طبيعة الموقف لمصلحة الإسلام والمسلمين وأي موقف غيره سيكون فيه الفشل والضياع والهزيمة والرجوع إلي الجاهلية ولولا الله ثم هذا القرار الحاسم من أبي بكر لتغير وجه التاريخ وتحولت مسيرته ورجعت عقارب الساعة إلي الوراء ولعادت الجاهلية تعيس في الأرض فسادا^(٥) من هنا يتبين لنا صحة رأي من قال بعدم إلزام الشورى لخليفة المسلمين،، والله أعلم.

المطلب الرابع: الحرية:-

لا نزال نجد إلى اليوم أن حرية العقيدة غير متوفرة في كثير من الدولة المعاصرة، إذ يجبر كثير من الأفراد على ترك دينهم، أو لا يسمح لهم بإقامة شعائرهم الدينية، أو يلاقون كثيرا من العنف والاضطهاد بسبب حفاظهم على عقائدهم التي يؤمنون بها^(٦). وحرية العقيدة في الإسلام تعني أن الإنسان له مطلق الحرية في اعتناق ما يطمئن إليه قلبه، ويقتنع به عقله دون قسرٍ من احد على اعتناق ما يرفضه. يقول الشيخ أبو زهرة: (ولقد احترم الإسلام حرية الاعتقاد، وجعل الأساس في الاعتقاد هو أن يختار الإنسان الدين الذي يرتضيه من غير إكراه ولا قسر، وأن يجعل أساس اختياره التفكير السليم، وأن يحمي دينه الذي أرتضاه، فلا يكره على خلاف ما يقتضيه)^(٧). لفت القرآن الكريم نظر النبي ٣ إلى هذه القاعدة، وبين له أن عليه تبليغ الدعوة فقط وانه لا سلطان له على تحويل الناس إلى الإسلام:

(أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)^(٨).

(١) بحقه حق الإسلام .

(٢) الانثي من ولد المعز .

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٢٤) ومسلم (٢٠) .

(٤) حروب الردة محمد احمد باشميل دار الفكر ط ١ ١٣٩٩ هجرية - ١٩٧٩ م ص (٢٤) .

(٥) الشورى بين الأصالة والمعاصرة ص (٨٦) .

(٦) نظام الحكم ، د. محمد فاروق النبهان ، ص (٢٣٤) .

(٧) ينظر : تنظيم الإسلام للمجتمع ، للإمام محمد أبو زهرة ، ص (١٨٢) .

(٨) سورة يونس: الآية (٩٩) .

(لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ)^(١)، (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنَّ عَلَيْكَ إِلًّا الْبَلَاغُ)^(٢).

ومن ذلك يتضح أن لقرآن الكريم يرفض رفضا قاطعا إكراه أحد على إعتناق الإسلام. ولقد حدد الإسلام المنهج الذي يتحتم على المسلمين إتباعه في الدعوة إلى الإسلام ونشره في كل مكان، وجاء هذا المنهج في القرآن الكريم مشتملا على الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى، قال الله تعالى: (اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)^(٣)، وقوله تعالى: (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)^(٤)، وتطبيقا لذلك وبعد فتح مكة ترك الرسول ٣ أهلها قائلا لهم ((اذهبوا فأنتم الطلقاء))^(٥)، فلم يكرههم على الإسلام بعد الانتصار عليهم، ولم يحدث أن اجبر الإسلام اليهود والنصارى إلى الدخول فيه. ومن المعروف أن جيوش المسلمين لم تذهب إلى جنوب آسيا وغرب إفريقيا ورغم ذلك انتشر الإسلام عن طريق التجار من المسلمين بل إن الشعوب إحتذت حذو هؤلاء المسلمين لحسن أخلاقهم وسلوكهم الإسلامي الذي أثار اقتناعهم بالإسلام قناعة منهم بالعقل وليس بتطايير الرؤوس كما يدعى الغرب وأعداء الإسلام^(٦).

لحرية الرأي في النظام الإسلامي أهمية كبرى باعتبارها مرتكزا أساسيا للكثير من الضوابط والقواعد الشرعية ؛ لان حرية الرأي تجلّي الحقائق وتظهرها في النهاية على الرغم من الأهواء والتزيف وقلب الحقائق، خاصة في هذا العصر الذي تطورت فيه وسائل الاتصال بشكل سريع وفعال، وانتشرت فيه الثقافة عبر دول العالم، وزادت فيه وسائل التعلم والتعليم بين مختلف الشعوب، ونشأت أهمية حرية الرأي في النظام الإسلامي من كون الإسلام دعوة إنسانية عالمية، يجب إبلاغها وإيصالها لكل عقل إنساني في هذا العالم، فمجال العمل للإسلام هو الجنس البشري قاطبة، وبدون حرية الرأي لا يمكن أن تتخذ الدعوة الإسلامية سبيلها إلى عقول شعوب العالم، فإعلان الدعوة وطرح أفكارها ومبادئها الرئيسة يقتضى بدهة حرية الرأي عند الطرفين، عند الداعية المسلم، وعند الطرف الثاني مهما كان فكره واعتقاده^(٧).

(١) سورة الغاشية : الآية (٢٢).

(٢) سورة الشورى : الآية (٤٨).

(٣) سورة النحل : الآية (١٢٥).

(٤) سورة البقرة : الآية (٨٣).

(٥) أخرجه ابن إسحاق (٤١٢/٢) قال: حدثني بعض أهل العلم ... فذكره، ضعفه الألباني.

(٦) مائة سؤال عن الإسلام، للشيخ محمد الغزالي ، دار ثابت، ١٩٨٣م (١١٨/١).

(٧) مفاهيم الحق، عدى زيد الكيلاني، ص(١٨٦).

وإذا كان الإسلام قد أفسح صدره، فكفل حرية العقيدة فلن يضيق ذرعا بحرية الرأي؛ وهي دون تلك.

وتجد حرية الرأي سندها في القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال وأفعال الخلفاء الراشدين وولاة الأمور في النظام الإسلامي وفقهاء الإسلام، فسندها في القرآن الكريم قوله تعالى: (وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)^(١).

وأما سندها من السنة النبوية الشريفة فيما روى عن أبي إمامة^(٢)، أن رجلا قال: يا رسول الله أي الجهاد أفضل؟، ورسول الله يرمى الجمرة الأولى، فاعرض عنه، ثم قال له عند الجمرة الوسطى؟ فاعرض عنه، فلما رمى جمرة العقبة، ووضع رجله في الغرز قال: أين السائل؟، قال: أنا ذا يا رسول الله، قال: أفضل الجهاد من قال كلمة حق عند سلطان جائر^(٣).

من الناحية العملية والممارسة لهذه الحرية فإن رسول الله ﷺ كان يحرص على إعطاء القدوة والمثل في كفالة حرية الرأي حيث انه قد استمع إلى رأى سلمان الفارسي بأهمية حفر الخندق حول المدينة المنورة لملاقاة الأحزاب وحماية المدينة والدفاع عنها، فآخذ برأيه وتم حفر الخندق بالفعل ونجحت الخطة في منع قريش ومن معها من اقتحام المدينة، ولذا سميت هذه الغزوة بغزوة الخندق^(٤).

وأما سندها من أقوال وأفعال الصحابة والفقهاء فهذا هو الخليفة الأول أبو بكر الصديق ؓ قال له طلحة بن عبيد الله في اختياره لعمر بعده خليفة له بعد مشاورة أهل الرأي من الصحابة: ما أنت بقائل لربك إذا سالك عن استخلاف عمر علينا وقد ترى غلظته، وهو إذا ولى علينا كان أفظ وأغلظ؟ فيرد عليه أبو بكر الصديق قائلاً: ((أبالله تخوفني؟ خاف من تزود من أمركم بظلم أقول: اللهم إني استخلفت على اهلك خير اهلك))^(٥).

وأما سندها من أقوال الفقهاء فنجد أروع ما يسجله التاريخ من الأئمة في هذه المضمار حيث

(١) سورة آل عمران: الآية (١٤).

(٢) هو: صُدِّي بن عجلان الباهلي أبو أمامه، صاحب مشهور، له مائتان وخمسون حديثاً، كان لا يمر بصغير ولا كبير إلا سلم عليه. قال أبو اليمان: مات سنة إحدى وثمانين بمصر. ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/٤٧٣-٤٧٤)، تقريب التهذيب (٣٦٦/١)، الثقات (٣/١٩٥).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٥٢/٥-٢٥٦)، وابن ماجه (١٣٣٠/٢) كتاب الفتن، باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠١٢)، قال البوصري في الزوائد (٣/٢٤٣): هذا إسناد فيه مقال، أبو غالب مختلف فيه، ضعفه ابن سعد، وأبو حاتم، والنسائي، ووثقه الدارقطني، وقال ابن عدى: لا بأس به.

(٤) كانت غزوة الخندق - كما قال ابن إسحاق ومتابعوه - في شوال، وقال محمد بن عمر وابن سعد: في ذي القعدة، وقال الجمهور: سنة خمس. قال الذهبي: هو المقطوع به. وقال ابن القيم: انه الأصح، وقال الحافظ: هو المعتمد.

(٥) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة الدينوري (١/١٩)، المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي وقواعد الملكية والعقود فيه، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م، ص (٢٤٩).

يقول الإمام أبو حنيفة (رحمة الله): ((هذا الذي نحن فيه رأى لا نجبر عليه أحدا ولا نقول يجب على أحد قوله، فمن كان عنده أحسن فليأت به))^(١)، قال الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور^(٢):
إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة
فان فساد الرأي أن تترددا^(٣)

فالشاعر يخاطب صاحب الرأي، لكي يكون رأيه وجيها، أن يكون ذا عزيمة وشجاعة، ولا يتردد لان تردده يؤدي إلى فساد رأيه.

المطلب الخامس: وحدة الأمة:-

أولاً:- وجوب وحدة الأمة

١- القرآن الكريم:-

حث الله عز وجل المسلمين ودعاهم إلى الوحدة في كثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ونفرهم عن التفرق والتنازع وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ((وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ))^(٤).

فنهى عن التنازع لما فيه من الفشل والخيبة وزوال الوحدة التي هي معقد العزة والقوة وبالعزة يعتز الحق ويعلو في العالمين وبالقوة يحفظ الحق وأهله من هجمات المفسدين وكيد الكائدين.

قال الله تعالى: ((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرُصُوصٌ))^(٥)^(٦).

وقد نهت سورة آل عمران على الإتحاد كعامل من عوامل النصر فقد أمر الله تعالى الأمة بالاتحاد ونهى عن التفرق فقال الله تعالى ((وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ

(١) الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين، لحمد الغزالي، دار الكتب، العربي، القاهرة، ١٩٥١م، ص(١٣٤).

(٢) يعد أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية التي ظلت خمسة قرون زينة الدنيا، ومركز الحضارة، وموئل الثقافة، وعاصمة العالم. وكانت مصلحة الدولة شغله الشاغل، فأحكمت خطوه وأحسن تدبيره، وفجرت في نفسه طاقات هائلة من التحدي، فأقام دولته باليقظة الدائمة والمثابرة الدائمة والسياسة الحكيمة، فحين نجحت الدعوة العباسية وأطاحت بالدولة الأموية؛ تولى أبو العباس السفاح الخلافة سنة (١٣٢هـ = ٧٤٩) واستعان بأخيه جعفر في محاربة أعدائه والقضاء على خصومه وتصريف شئون الدولة، وكان عند حسن ظنه قدرة وكفاءة فيما تولى، حتى إذا مرض أوصى له بالخلافة من بعده، فوليها في (ذي الحجة ١٣٦هـ، يونيو ٧٥٤م) وهو في الحادية والأربعين من عمره، ومن الأعمال الجليلة التي تُذكر للمنصور عنايته بنشر العلوم المختلفة، ورعايته للعلماء من المسلمين وغيرهم، وقيامه بإنشاء "بيت الحكمة" في قصر الخلافة ببغداد، وإشرافه عليه بنفسه، ليكون مركزاً = للترجمة إلى اللغة العربية. وقد أرسل أبو جعفر إلى إمبراطور الروم يطلب منه بعض كتب اليونان فبعث إليه بكتب في الطب والهندسة والحساب والفلك، فقام نفر من المترجمين بنقلها إلى العربية، توفي في السادس من ذي الحجة لسنة ١٥٨ هـ، ينظر: أبو جعفر المنصور، لعلي أدهم - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٦٩م.

(٣) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م، ص (٢٦٨)، وتاريخ دمشق (٣٣٨/٣٢)، والمنتظم (١٠/٨).

(٤) سورة الأنفال: الآية (٤٦).

(٥) سورة الصف: الآية (٤).

(٦) الجهاد: كتاب المؤتمر الرابع مجمع البحوث الإسلامية بحث بعنوان الجهاد طريق النصر للشيخ عبد الله غوشة ص(١٨٣).

اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١).

فالتفرقة تضعف شوكة المجتمع وتجعله مجتمعا هزيعا مهانا بين المجتمعات القوية والتفرقة خلاف الاتحاد الذي دعا إليه رب العزة سبحانه بقوله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) ففي الاتحاد قوة الأمة وعزها .

٢ - السنة:-

إذا كان القرآن الكريم قد عنى بإبراز الآيات التي تأمر المسلمين بالوحدة والاعتصام وتنهاتهم عن الاختلاف والتفرق في الدين فإن السنة النبوية المطهرة قد أكدت وقررت ما جاء في القرآن الكريم من الدعوة إلى الاتحاد والألفة والتحذير من الاختلاف والفرقة .

عن أبي هريرة ؓ قال قال رسول الله ﷺ ((إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ويكره لكم القيل والقال وكثرة السؤال وإضاعة المال)) (٢).

وبهذا حرص النبي ﷺ على الوحدة والتآلف بين المسلمين فصاروا إخوة متحابين بعد أن كانوا أعداء متناحرين، عن تميم الداري (٣) ؓ أن النبي ﷺ قال: ((الدين النصيحة قلنا لمن؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)) (٤).

عن النعمان ابن بشير قال قال رسول الله ﷺ ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)) (٥).

ثانيا: - (إيجابيات الوحدة والاجتماع)

الاعتصام بحبل الله وقيام الوحدة وإبراز روح الإخوة الإسلامية أساس القوة والعزة والمنعة فلا شك أن الوحدة تعطي للمسلمين قوة ومنعة ضد أعدائهم كما أن الوحدة تجعل الأمة قوية

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٣).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٩٩٠/٢) كتاب الكلام باب ما جاء في إضاعة المال ((٢٠)) ومسلم (١٣٤٠/٣) كتاب الأفضية باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (١٧١٥/١٠).

(٣) هو تميم بن أوس بن حارثة الداري أبو رقية اسلم سنة تسع وسكن بيت المقدس له ثمانية عشر حديثا انفرد له مسلم بحديث جمع القرآن وكان يختم في ركعة قال أبو نعيم : أول من سرج في المساجد تميم توفي أربعين هـ. ينظر : تاريخ الأمم والملوك الكبير (١٥٠/١)، الثقات (٣٩/٣).

(٤) أخرجه مسلم كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة (٨٢)، والدارمي في سننه كتاب الرقائق باب: الدين النصيحة (٢٦٣٦).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم (٤٥٢/١٠) (٦٠١١)، ومسلم، كتاب: البر والصلة، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٦٦-٦٧/٢٥٨٦).

متماسكة في وجه الرياح والأعاصير وعندما توجه هذه القوة مجتمعة نحو أعدائها فإنها تفتت بأسهم وتقضى على كيدهم فإذا اختلفت الأمة أصبح بأسها بينها وهذا هو الفشل لأنها تدمر نفسها بنفسها وعند ذلك ينال أعدائها منها ما يريدون فالوحدة هي سبيل الارتقاء وتبوء المكانة الفاضلة.

المطلب السادس: طاعة أولي الأمر:-

أولاً:- معنى الطاعة:

١ - لغة: الانقياد والموافقة يقال أطاعه إطاعة أي انقاد له والاسم طاعة وأنا طوع يدك أي منقاد لك .

٢ - اصطلاحاً: عرفها الجرجاني^(١) بأنها موافقة الأمر طوعاً، قال الكفوي: هي فعل المأمورات ولو ندبا وترك المنهيات ولو كراهة^(٢).

قال ابن حجر: الطاعة هي الإتيان بالمأمور به والانتفاء عن المنهي عنه والعصيان بخلافه^(٣) . كل هذه التعريفات مؤداها إلى معنى واحد وإن اختلفت في الألفاظ فالطاعة على ضوء ذلك هي امتثال الأمر مطلقاً سواء أكان الأمر هو الله أم غيره وسواء أكان الامتثال واقعاً مع غاية التعظيم والتذلل أم لا^(٤).

ثانياً :- من هم أولو الأمر ؟ :

اختلفت العلماء قديماً وحديثاً حول تحديد من هم أولى الأمر إلى مذاهب وآراء عديدة. فذهب بعض العلماء إلى أنهم الولاة والأمراء^(٥)، وذهب آخرون إلى أنهم العلماء^(٦)، ورجح البعض أن الآية عامة تشمل الصنفين معا^(٧) .

(١) هو : علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني فيلسوف من كبار العلماء بالعربية ولد في تاكو سنة ٧٤٠هـ قرب استراباد ودرس في شیراز من تصانيفه: التعريفات توفي بشيراز سنة ٨١٣هـ . ينظر : الفوائد البهية ص(١٢٥) ، والضوء اللامع (٣٢٨/٥).

(٢) التعريفات للجرجاني ص(١٨٢) ، والكلبيات (١٥٥/٣-١٥٦)، ودستور العلماء (٢٧١/٢).

(٣) فتح الباري (١٢/١٣).

(٤) ينظر : عمدة الحفاظ للسمين الحلي (١٦٤٤/٣) ، والكلبيات للكفوي ص(٥٨٣).

(٥) قال أبو هريرة وابن عباس في رواية وزيد بن اسلم والسدي وميمون بن مهران ورجحه الشافعي والطبري. وعزاه النووي إلى جماهير السلف والخلف من المفسرين والفقهاء وغيرهم - شرح مسلم للنووي المجلد الرابع (٢٢٣/١٢).

(٦) قال جابر وابن عباس والحسن وأبو العالية وعطاء والنخعي ومالك وابن القيم - أعلام الموقعين، (١٠٩/١).

(٧) قال ابن كثير وابن تيمية وأبو بكر الجصاص حيث يقول: ويجوز أن يكونوا جميعاً مرادين بالآية لأن الاسم يتناولهم جميعاً، لأن الأمراء يلون أمر تدبير الجيوش والسرايا وقتال العدو، والعلماء يلون حفظ الشريعة وما يجوز وما لا يجوز، فأمر الناس بطاعتهم والقبول منهم ما عدل الأمراء والحكام وكان العلماء عدولاً مريضين موثقاً بدينهم وأمانتهم فيما يؤدون، أحكام القرآن (٢١٠/١)، وقال ابن كثير: والظاهر والله أعلم أنها عامة في كل أولى الأمر من الأمراء والعلماء كما تقدم. المختصر، (٤٠٨/١).

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال هم الأمراء والولاة، لصحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بالأمر بطاعة الولاة والأئمة فيما كان لله طاعة وللمسلمين مصلحة^(١).

فإذا كان معلوما أنه لا طاعة واجبة لأحد غير الله ورسوله أو إمام عادل وكان الله قد أمرنا في الآية بطاعة ذوى أمرنا، كان معلوما أن الذين أمر الله بطاعتهم من ذوى أمرنا هم الأئمة ومن ولوه المسلمين دون غيرهم من الناس، وإن كان فرضا القبول من كل من أمر بترك معصية الله ودعا إلى طاعة الله ﷻ وأنه لا طاعة لأحد فيما أمر ونهى فيما لم تقم حجة وجوبه إلا للأئمة الذين ألزم الله عباده بطاعتهم فيما أمروا به رعيته مما فيه مصلحة لعامة الرعية. فإن على من أمروه بذلك طاعتهم، وكذلك في كل ما لم يكن له معصية^(٢).

وقد تواترت الأخبار في السنة النبوية الصحيحة في الحث على طاعة الأئمة والولاة فمن ذلك:
١ - عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع الإمام فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصا الإمام فقد عصاني"^(٣)، وفي رواية "ومن أطاع الأمير"، وفي رواية أخرى "ومن أطاع أميري".

قال الشافعي رحمه الله: (كانت قريش ومن يليها من العرب لا يعرفون الإمارة فكانوا يمتنعون على الأمراء، فقال النبي ﷺ هذا القول يحثهم على طاعة من يؤمرهم عليهم والانقياد لهم إذا بعثهم في السرايا وإذا ولاهم البلاد فلا يخرجوا عليهم لئلا تفترق الكلمة)^(٤).
وفي هذا دليل على أن الطاعة في الإسلام لأولى الأمر ليست من قبيل المصلحة وحسب، وإنما هي دين وقربة يتقرب بها العبد إلى ربه.

٢ - عن ابن عمر ؓ قال: كان رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال "أستم تعلمون أن من أطاعني فقد أطاع الله، وإن من طاعة الله طاعتي؟ قالوا: بلى نشهد قال: فإن طاعتي أن تطيعوا أمراءكم"، وفي لفظ: "أئمتكم"^(٥).

وإنما أمر رسول الله ﷺ بطاعة الأئمة والولاة على هذا النحو لما في ذلك من المحافظة على اتفاق الكلمة، ولما في الافتراق من الفساد، وهذا واضح في كثير من الأحاديث التي تحت على الطاعة وإن كانت شاقة على النفس، وإن كان الأمير عبدا تأنف النفوس بطبعها من الخضوع له.

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٥٠٢/٨).

(٢) المرجع السابق، المعروف بتفسير الطبري (٥٠٣/٨).

(٣) متفق عليه وورد بلفظ (الأمير) عند مسلم، ولفظ (أميري) عند البخاري كالأحكام والحديث في شرح السنة للبعوى بإسناده عن أبي هريرة ؓ الإمارة والقضاء، (٤١/١٠).

(٤) ذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ج ١٣ ص ١٢٠ في شرحه لألفاظ الحديث.

(٥) أخرجه الإمام أحمد وأبي يعلى والطبراني وأورده ابن حجر في شرحه للحديث (١٢٠/١٣)، وأنظر مجمع الزوائد ومنع الفوائد للهيثمي (٢٢٥/٥).

فمن هذه الأحاديث:

عن أنس بن مالك **t** قال: قال رسول الله **ﷺ**: "أسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبدٌ حبشي كان رأسه زبيبة"^(١).

عن أم الحصين **t** أنها سمعت النبي **ﷺ** يخطب في حجة الوداع وهو يقول "ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله اسمعوا له وأطيعوا"^(٢).

فطاعة الأمير ليست لشخصه، بل هي لمنزلته في القيادة وهذه الطاعة مرتبطة كما قررنا من قبل في الحديث عن آية الطاعة - بطاعة الله ورسوله والعمل بما في الكتاب والسنة دون غيرهما ولهذا قيد النبي **ﷺ** طاعة العبد بقيد هام هو أن يقود المسلمين بكتاب ربهم وسنة نبيهم **ﷺ**.

بل إن الطاعة في الإسلام لتذهب مذهبا بعيدا عن واقع المجتمعات التي نراها اليوم من ارتباط الطاعة بالرهبة أو الرغبة، الرهبة من القائد والخوف منه، والرغبة فيما عنده من الصلة والمنزلة، فيقرر النظام الإسلامي في أن الطاعة واجبة لمن تكره مثلما هي واجبة لمن تحب، فإذا ما رأيت من الأمير شيئا تكرهه فلا يؤدي بك إلى خلع طاعته بل اصبر على ما تكرهه منه ولا تنزع عن يدا من طاعة.

عن عبد الله بن عباس **t** عنه عن النبي **ﷺ** قال "من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصر، فانه ليس احد بفارق الجماعة شبرا فيموت ميتة جاهلية"^(٣).

بل إن الطاعة تكون عند الكسل أو كراهية الفعل كما تكون عند النشاط والتحمس له، وتكون في العسر والشدة كما تكون في الرخاء واليسر، فعن عبادة بن الصامت **t** قال: (بايعنا رسول الله **ﷺ** على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثره علينا...) ^(٤).

بل إن إطاعة تظل هي الرابطة بين الحاكم والمحكوم، حتى وإن جنح الحاكم إلى الاستئثار بالمال وعدل عن منهج الخلافة الراشدة.

ولا يعني هذا السكوت على الظلم أو إقراره، بل يجب على كل مسلم قادر أن يسعى إلى المعالجة بوسائلها المشروعة، فالنصح لولاة الأمر واجب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(١) متفق عليه، البخاري، ك: الأحكام، ح ٧١٤٢، ومسلم، ك: الإمارة ح ١٨٣٧، وهو في شرح السنة للبغوي بإسناده، (٤٢/١٠).

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم ك الإمارة ص ١٨٣٨، واحمد ج ٦٩/٤، وذكره البغوي في تعليقه على الحديث السابق (٤٢/١٠).

(٣) حديث متفق عليه، وهو في شرح السنة للبغوي بإسناده، ج ١٠ ص ٤٧، البخاري كتاب الفتن حديث (٧٠٥٤) (٧١٤٣)، ومسلم ك الإمارة حديث (١٨٤٩).

(٤) حديث متفق عليه، والنص للبخاري ك الأحكام وكتاب الفتن حديث (٧٠٥٦)، ومسلم ك الإمارة حديث (١٧٠٩)، أخرجه البغوي في السنة (٤٦/١٠).

واجب على كل قادر، والطاعة ليست مطلقة وإنما مقيدة بما لا يخالف الشرع.

ثالثاً: - طاعة ولي الأمر:

إن العلاقة بين الحاكم والمحكوم، أو بين السلطة الآمرة الناهية وبين الأفراد تستلزم أن يتقبل الأفراد طاعة هذه السلطة فيما أمرت به أو نهت عنه . لأن الأصل في هذه الأوامر والنواهي إنما بقصد تحقيق الصالح العام، والعمل على سير دولاب الحياة بانتظام، ولكن الفرد بطبيعته يأنف من الخضوع لغيره كائناً من كان، ويسعى للتمرد على أوامر السلطة الحاكمة إرضاءً لنزواته، ولا يذعن لأوامر السلطة ونواهيها إلا إذا ارتبطت هذه الأوامر والنواهي - القاعدة القانونية - بجزء مادي يوقع على المخالف لها، لذا كان الجزء المادي ركناً هاماً من أركان القاعدة القانونية لكي تنال احترام الأفراد، ولتمييزها عن القواعد الأخلاقية.

وحتى هذا الجزء لا يكفي لتحقيق الاحترام والتقديس للقواعد القانونية فإن الفرد غالباً ما يسعى لمخالفة هذه القاعدة مع حرصه على التغلّب على الجزء المترتب على مخالفتها وذلك بشق الطرق، لذلك نجد فقهاء القانون عاجزين عن توفير الاحترام لهذه القواعد القانونية منفكة عن الجزء المترتب عليها، وكذلك دعاة الأخلاق لم يصلوا بعد إلى إقناع الأفراد بضرورة الانقياد إلى أوامر السلطة الحاكمة بغض النظر عما يترتب على مخالفتها من جزاء . وهذه المشكلة الرئيسية التي ما زالت تؤرق صنّاع القوانين.

أما في النظام الإسلامي حيث يرتبط الأمر والنهي بالعبادة لله وحده فإن هذه المشكلة تكون غير ذات بال.

فالمسلم الذي رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وشريعة ومنهاجاً وبمحمد ﷺ رسولاً يجد في نفسه وفي ضميره الباعث على احترام أوامر الله ﷻ ونواهيهِ، وذلك لتمام علمه بأن الله ﷻ رقيب عليه في كل حين، فتنحقت في نفسه تقوى الله ﷻ وثمرتها إتباع أوامر الله ﷻ واجتناب نواهيهِ، وحتى لو غلبته شهوته وخالف أمراً لله ﷻ فإنه يسارع بإعلان توبته إلى الله ﷻ حتى يعفو عنه وينجيه من عذابه يوم يبعث عباده.

ومن هذا المنطلق الإيماني الذي يسود المجتمع المسلم نجد أن الجاني الذي ارتكب جريمة في الخفاء وتحت جناح الظلام، يتقدم إلى السلطة الحاكمة معترفاً بجرمه من غيره إكراه يطلب توقيع العقوبة على نفسه حتى يطهرها من الذنب الذي أصابها فدنسها^(١).

تلك هي الطاعة في النظام الإسلامي، دين متبع، وعمل يتقرب به إلى الله ﷻ، ينال الفرد به الثواب الجزيل في الدنيا والآخرة.

(١) راجع قصة ماعز والغامدية في كتب السنة وكتب الفقه البخاري ك الحدود ح ٦٨٢٥.

قال الله U (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) فانظر كيف ربط الله U الطاعة بالإيمان، فلم يطلبها إلا من مؤمن لان المؤمن إنما يسعى إليها لا لشيء إلا ابتغاء مرضاة الله U راغباً فيما عند الله من المثوبة، راهباً مما توعده الله من العقوبة.

رابعاً :- من له حق الطاعة:

أرشدت الآية إلى وجوب طاعة الله U فيما أمر به ونهى عنه في القرآن الكريم وطاعة رسوله ﷺ فيما بين ووضح وأمر في سنته.

فالأية نص في وجوب شرع الله U من كتاب وسنة فطاعة الله U وطاعة الرسول ﷺ إتباع الكتاب والسنة، ثم أرشدت الآية إلى وجوب طاعة أولى الأمر بالتبعية لطاعة الله والرسول لا استقلالاً، والنكته في إعادة العامل - أطيعوا - في الرسول دون أولى الأمر مع إن المطاع في الحقيقة هو الله U، كون الذي يعرف به ما يقع به التكليف هما القرآن والسنة، فكأن التقدير أطيعوا الله U فيما نص عليكم في القرآن. وأطيعوا الرسول ﷺ فيما بين لكم من القرآن وما يقصه عليكم من السنة، أو المعنى: أطيعوا الله فيما يأمركم به من الوحي المتعبد بتلاوته وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحي الذي ليس بقرآن^(١)، ثم أطيعوا ولاة الأمور ما داموا قائمين على شرع الله منفذين له، فان حدث بينكم خلاف على أمر من الأمور فاحتكموا إلى الله ورسوله أي إلى الكتاب والسنة حتى تصلوا إلى وجه الحق وإلى حكم الله U إن كنتم على إيمانكم بالله U فتصيبوا الخير في الدنيا والآخرة.

خامساً:- وجوب طاعة ولي الأمر :

حث القرآن الكريم على طاعة أولى الأمر في مواضع شتى .
قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)^(٢).
ويندرج تحت مدلول أولى الأمر كافة الرؤساء على اختلاف مراتبهم أو مسمياتهم المنتشرين في ربوع الدولة الإسلامية واللذين يدين لهم الموظفون بالطاعة^(٣).
قال رسول الله ﷺ ((السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يأمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة))^(٤).

(١) ابن حجر العسقلاني - فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٩٢/١٣).

(٢) سورة النساء : الآية (٥٩).

(٣) واجب الطاعة د.عاصم عجيلة ص(٢٩).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الأحكام باب: السمع والطاعة (١٢١/١٣) (٧١٤٤)، ومسلم كتاب الإمارة باب: وجوب طاعة

الأمراء (١٤٦٩/٣) (١٨٣٩ - ٣٨)

عن أنس أن النبي ﷺ قال : ((لأبي ذر اسمع وأطع ولو لعبد حبشي كان رأسه زبيبة))^(١).
يوضح الحديث أنه على المؤمن أن يسمع ويطيع وإن لم يستوف الحاكم شروط الإمامة كان يترأس من هو أدنى منه وكل ذلك لمصلحة الإسلام والمسلمين وتغليب حق الجماعة على حق الفرد^(٢).

جدير بالذكر أن طاعة ولي الأمر تجب إذا كانت متصلة بشأنه من جهة كونه واليا وذلك إذا أمر بشيء يتعلق بشئون الولاية فأما إذا أمر بشيء يرجع إلى شخصه أو شخص المأمور أو غيرهما من الأفراد من غير أن يكون راجعا إلى مصلحة عامة من خصائص الولاية لم تجب طاعته^(٣).
لذا يقول الإمام ابن نجيم في الأشباه والنظائر: تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة.
ثم يقول بعد أن ذكر بعض الأمثلة على ذلك إذا كان فعل الإمام مبنيا على المصلحة فيما يتعلق بالأمور العامة ينفذ أمره شرعا فان خالفها لم ينفذ .

سادسا :- حدود الطاعة :

طاعة أولى الأمر لم تأت استقلالا وإنما جاءت تبعا لطاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ، فأولو الأمر لا ينفردون في الطاعة في كل ما أمروا به، ولكن يطاعون فيما هو طاعة لله ﷻ، وإذا كان الرسول ﷺ لا يأمر بغير طاعة الله ﷻ بل لا يتصور أن يأمر بغير طاعة الله، فان من أولى الأمر من يأمر بغير طاعة الله ﷻ لذا فهم لا يطاعون في غير معصية الله ﷻ.
وإذا كانت أغلب الأحاديث قد حثت على طاعة أولى الأمر وان منع الحقوق وظلم الرعية، فليس معنى هذا إن طاعته مطلقة فقد وردت أحاديث أخرى كثيرة تقيد عموم أحاديث الطاعة^(٤).

قال رسول الله ﷺ "السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره، ما لم يأمر بمعصية، فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"^(٥)، وقال رسول الله ﷺ "إنما الطاعة في المعروف"^(٦)، وقال رسول الله ﷺ "أطعه في طاعة الله واعصه في معصية الله"^(٧).

(١) أخرجه البخاري كتاب: الأحكام باب: السمع والطاعة للإمام (١٣٠/١٣) (٧١٤٢)، ومسلم كتاب الإمارة باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (١٤٦٧/٣) (٣٦-١٨٨٧).

(٢) شرعية السلطة والنظام في حكم الإسلام أ.د. صبحي عبده سعيد ص(١٠٨).

(٣) نظرية الإباحة عند الأصوليين والفقهاء د. محمد سلام مذكور ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ط ٢ ١٩٨٤ م ص (٣٣٤).

(٤) والمطلق يحمل على المقيد إذا اتحد النصان في الحكم والسبب بغير خلاف. ذكرى البرى (أصول الفقه الإسلامي ص١٨٩).

(٥) أخرجه البخاري في ك الأحكام حديث (٧١٤٤)، وأخرجه مسلم في ك الإمارة حديث (١٨٣٩).

(٦) أخرجه البخاري في ك الأحكام حديث (٧١٤٥)، وأخرجه مسلم في ك الإمارة حديث (١٨٤٠).

(٧) أخرجه مسلم في ك الإمارة حديث (١٨٤٤).

قال ابن القيم (رحمه الله): - (هذه فتوى عامة لكل من أمره أمير بمعصية الله كائنا من كان ولا تخصيص فيها البتة)^(١).

قال الشوكاني (رحمه الله): (وهذا تقييد لما أطلق في الأحاديث المطلقة القاضية بطاعة أولى الأمر على العموم)^(٢).

وأهل السنة والجماعة على هذا الذي قررتاه من السمع والطاعة لولاة الأمور ما لم يأمرُوا بمعصية الله U .

روى أن عمر بن هبيرة كان واليا على العراق، فقال لعدة من الفقهاء منهم الحسن البصري والشعبي (إن أمير المؤمنين يكتب إلي في أمور اعمل بها فما تريان؟)، قال الشعبي (أنت مأمور والتبعة على من أمرك) فقال للحسن ما تقول، قال الحسن البصري (اتق الله يا عمر فكأنك بملك قد أتاك فأنزلك عن سريرك هذا فأخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك فإياك أن تعرض لله بالمعاصي فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)^(٣).

المطلب السابع: رقابة الأمة على الحاكم:-

الإسلام لا يبيح لأفراده السلبية أو الانعزالية بل عليهم أن يردوا الفرد عن الخطأ ويقوموا بالحكم إذا عوج عن طريق النصح والإرشاد، قال الله تعالى: (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ) (٤) (٥).

قال رسول الله ﷺ ((إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه))^(٦) فالحكم في الإسلام ليس حكما مطلقا فالحاكم مقيد بقواعد الشريعة ونصوص الكتاب والسنة فمتى خالفهما صار معرضاً للنقد والإنكار عليه .

ومن ثم يتضح أن من أهم الواجبات الأساسية لأي جماعة حل وعقد في ظل الشريعة الإسلامية نصح الحاكم وتسديده.

(١) أعلام الموقعين (٤/٤٠٠).

(٢) نيل الأوتار (٧/٢٣٠).

(٣) أخرجه البغوي في شرح السنة، (٤٥/١٠)، وذكر أيضا عن أبي برزة انه مر على أبي بكر وهو يتغيط على رجل من أصحابه - وقيل إن الرجل كان يسب أبا بكر، فقال أبو برزة: يا خليفة رسول الله من هذا الذي تتغيط عليه؟ قال فلم تسأل عنه؟ قلت: لأضرب عنقه فقال أبو بكر لو قلت لك ذلك أكنت تفعله؟ قال: نعم فقال: ما كان ذلك لأحد بعد رسول الله ﷺ، قال البغوي رحمه الله: فهذا يؤيد ما قلنا وهو أن أحدا لا يجب طاعته في قتل مسلم إلا بعد أن يعلم انه حق إلا رسول الله ﷺ فإنه لا يأمر إلا بحق ولا يحكم إلا بعدل.

(٤) سورة الحج: الآية (٤١).

(٥) الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي لعبد الرحمن عبد الخالق ص(٥٩).

(٦) أخرجه أبو داود في الملاحم باب الأمر والنهي وابن ماجه في الفتن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠)، وأحمد (١/١)، والبيهقي (٦٥)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

ونذكر على سبيل المثال ما جاء يؤكد هذا المعنى في وضوح ففي خطبة أبي بكر الصديق ؓ حين بايعه المسلمون بالخلافة (إني وليت هذا الأمر وأنا له كاره، والله لوددت أن بعضكم كفانية، ألا وإنكم إن كلفتموني أن اعمل فيكم بمثل عمل رسول الله ﷺ لم أقم به فان رسول الله ﷺ عبد أكرمه الله بالوحي وعصمه به ألا وإنما أنا بشر لست بخير من أحد منكم فراعوني فان رأيتموني استقمتم فاتبعوني وان رأيتموني زغت فقوموني) (١).

ولا شك أن المقصود بالتقويم إسداء النصح وليس الخروج علي الخليفة إذ إن هذا السلوك لا يقره الإسلام إلا في إطار غاية في الضيق كردة الإمام وما بخلاف ذلك فالنصح هو الأساس الذي بني الإسلام وأسس من خلاله علاقة الأمة بالحاكم فلاسلام قرر النصيحة وأوجبها علي المسلمين جميعا سواء أكانوا من ولادة الأمور أم من الرعاية .

عن تميم الداري ؓ أن النبي ﷺ قال "الدين النصيحة -ثلاثا- قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال لله U، ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" (٢).

وقد عد بعض الفقهاء هذا الحديث من الأحاديث التي عليها مدار الدين كله وقد اخبر النبي ﷺ أن الدين النصيحة فدل على أن النصيحة تشمل الدين كله، فتشمل خصال الإسلام والإيمان والإحسان.

والنصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له (٣)، س٥ فالنصيحة كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير ايرادة وفعلا (٤).

قال رسول الله ﷺ "ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين" (٥).

لذا كانت المناصحة من أمور الدين التي تتم البيعة عليها.

عن جرير بن عبد الله ؓ قال بايعت رسول الله ﷺ علي إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم (٦).

جدير بالذكر أن مناصحة الرعية لولاة الأمور علي ثلاثة مراتب :

المرتبة الأولى:- ومؤداها أن يختار المسلمون إمامهم اختيارا حرا عن طريق البيعة العامة

(١) ينظر : النقد المباح د. عماد النجار ص(٣٧٣)، والقضاء في الإسلام د. محمد سلام مذكور (١٤٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ج ١ - ح (٧٤).

(٣) قاله الخطابي فيما أورده ابن رجب في شرحه الحديث ص ٢٩٦، بتحقيق د/ الأحمدي أبو النور، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٤) قاله ابن الصلاح فيما أورده ابن رجب في المصدر السابق.

(٥) أخرجه احمد في مسنده (٨٢/٤)، والحاكم في المستدرک وصححه ووافقه الذهبي (٨٦/١-٨٨).

(٦) أخرجه البخاري في ك الإيمان ح (٥٧)، باب: قول النبي ﷺ الدين النصيحة وأخرجه مسلم في ك الإيمان ح (٧٥).

وترشيح أهل الحل والعقد.

المرتبة الثانية:- مناصحة طاعة: وقد تحدثنا عن الطاعة وبيان أنها دين وقربة وأنها تجمع على المسلمين شملهم وتحفظ وحدتهم، وبيان حدودها، وأنه لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف.

المرتبة الثالثة:- مناصحة إرشاد: بمعنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه الناس فيها على درجات .

الدرجة الأولى:- البطانة التي تحيط بالإمام من المستشارين والوزراء والمقربين، وهؤلاء هم اقدر الناس على نصح الإمام والتأثير عليه بالخير وبالشر، وفيهم يقول النبي ٣ "ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصم الله تعالى"(١).

الدرجة الثانية:- العلماء الذين جعل لهم تغير المنكر باللسان، وبين النبي ٣ إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر (٢)، وإن سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله (٣). وينبغي أن تكون النصيحة بأسلوب مقبول، لأن الفرق بين النصيحة وبين التعبير والاهانة والتشهير دقيق جدا وكان السلف إذا أرادوا نصيحة احد وعظوه سرا. سئل بن عباس عن أمر السلطان بالمعروف ونهيه عن المنكر فقال (إن كنت فاعلا ولا بد ففيمما بينك وبينه) (٤) .

وتاريخ الخلافة الراشدة ذاخر بالنصائح التي كان يتلقاها الخلفاء العظام من أبناء الأمة رجالا ونساء في الطرقات والمساجد والجامع، فهذا القول عن ابن عباس ليس على الوجوب، وإنما هو مندوب خاصة مع الأمراء الظلمة الذين لا يتقبلون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علانية.

الدرجة الثالثة:- عامة الناس ومناصحتهم مناصحة طاعة ومحبة ودعاء بالتوفيق والسداد. قال بعض السلف: لو كانت لي دعوة مجابة لدعوتهما لسلطان المسلمين، فإنها تصيب جميع المسلمين بالخير.

وكذلك ينبغي على عامة المسلمين معاونة ولادة الأمور على الحق وتذكيرهم به.

إن من ينظر إلى واقع الأمم يرى الفارق واضحا بين النظام الإسلامي وغيره من النظم التي

(١) أخرجه البخاري في ك الأحكام، باب : بطانة الإمام وأهل مشورته، ح (٧١٩٨).

(٢) أخرجه الترمذي في ك الفتن ح(٢١٧٤)، وأبو داود في ك الملاحم ح(٤٣٤٦)، وابن ماجه في ك الفتن ح (٤٠١١)، والنسائي

في كتاب: البيعة، ح (٧٧٨٦) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه..

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط - وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٥ ص ٢٣٩، حديث حسن.

(٤) ذكره ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم في شرحه للحديث ص ٣٠٤.

يتباهى الساسة فيها بخبرتهم في النفاق والرياء والتأثير على الرأي العام بكل الأساليب المشروعة وغير المشروعة حتى صارت تعريفاتهم للسياسة والسياسي مشهورة متداولة.

ولكن هذه هي السياسة في المجتمع المسلم سياسة المناصحة والمعاونة والمناصرة لا سياسة الكذب والخداع والخروج على الأئمة وإحداث الفتن والقلاقل.

المطلب الثامن: التعاون:-

لقد اعتنى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة عناية بالغة بأمر هذا التعاون المادي بين أبناء المسلمين، قال الله تعالى (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ (١٢) فَكُ رَقَبَةً (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١)). وجعل التفريط في التعاون بين المسلمين على الفقر سببا يهوى بصاحبه في الهاوية

قال الله تعالى : (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ (٢)).

كما أمر الله تعالى بالتعاون بين الناس وقيده بأن يكون التعاون على البر والتقوى، قال الله تعالى : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ (٣)).

كما أبانت السنة النبوية عن التعاون بين أهل الإيمان فروى النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال: ((المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه تداعى سائر الجسد بالحمى والسهر)) (٤).

وضرب رسول الله ﷺ مثلا بديعا كشف فيه الستر عن أن سلامة الحياة ونجاتها من الهبوط والعطب مرهونة بالتعاون على الخير والتناصح فعن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال ((مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أن خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوا وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا)) (٥).

ومن مظاهر التعاون بين أبناء المجتمع المسلم: التكافل بينهم، وهو تكافل مادي ومعنوي، واقتصادي وسياسي، وعسكري ومدني، واجتماعي وثقافي.

(١) سورة البلد : الآيات (١١:١٦).

(٢) سورة المدثر : الآيات (٤٢:٤٤).

(٣) سورة المائدة : الآية (٢).

(٤) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة باب : تراحم المؤمنين وتعاطفهم (١٩٩٩/٤) (٢٥٨٦/٦٧).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الشركة، باب: هل يقرع في القسمة والإستهام فيه، (٢٣١٣).

عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال ((ما من امرئ يخذل مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة ويتنقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يُحِبُّ فيه نصرته وما من امرئ ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمة إلا نصره الله في موطن يُحِبُّ فيه نصرته))^(١).

وعن أبي الدرداء^(٢) t أن النبي ﷺ قال ((من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه يوم القيامة))^(٣).

وقال رسول ﷺ ((من اغتیب عنده أخوه فاستطاع نصرته فنصره نصره الله في الدنيا والآخرة وان لم ينصره أذله الله في الدنيا والآخرة))^(٤).

فهذه الأحاديث وغيرها ترغب في التعاون بين المسلمين والنصرة بينهم وهي من التعاون المحمود فإذا أملت بأحد المسلمين ملمة ودارت عليه الدوائر واجتاحت الجائحات ماله فلم يقدر على النهوض بأعباء الحياة وأعوزه قوت يومه لزم أخاه المسلم إسعافه وإعانتته .

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٠/٤) وأبي داود (٢٧١/٤). برقم (٤٨٨٤) والبيهقي في السنن الكبرى، باب: ما في الشفاعة والذب عن عرض أخيه المسلم (١٦٧/٨) رقم (١٦٤٥٩) .

(٢) هو: الإمام القدوة قاضي دمشق وصاحب رسول الله ﷺ أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس روى عن النبي عدة أحاديث ويروى له (١٧٩) مات قبل عثمان بثلاث سنين ينظر : طبقات ابن سعد (٣٩١/٧-٣٩٣) التاريخ الكبير (٧٧-٧٦/٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٧/٤)، كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في الذب عن عرض المسلم رقم (١٩٣١) والبيهقي، (١٦٨/٨) كتاب قتال أهل البغي باب : ما في الشفاعة والذب عن عرض أخيه المسلم من الأجر قال الترمذي : هذا حديث حسن .

(٤) ذكره السيوطي في جمع الجوامع (٧٥٢/١) وعزاه لابن أبي الدنيا في ذم الغيبة وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٥٠٢/٣) رقم (٤١٩٧) وعزاه إلى أبي الشيخ في كتاب التوبيخ .